ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٨ ، السنـــــة : ٥٠

شعبان ١٤٤٧هـ ، فبراير ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- تيسرًا لصيام رمضان — التحرير — ٣

كلمة العدد

- أسلوب القرآن في الترغيب في البذل والإنفاق — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- الإسلام في حياتنا — الدكتور محمود البرشومي — ١٥
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ١٩
- حسن البيان فيما تشابه من آي القرآن — الأستاذ فهيم سالم المليجي — ٢٤
- أدب الاختلاف في الإسلام .... — الأستاذ محمد عبد الشافي القوصي — ٢٧
- الإسلام ورسوله وتعاليمه بلغة العصر — الأستاذ أحمد حسين المحامي — ٣٣
- القرآن الكريم: منهج الهداية وسبيل النهضة — محمد فائز جميل المباركفوري — ٣٩
- ليلتان في إمارة إسلامية هندية سابقة — التحرير — ٤٣

إشراقة

- أ أترك سنة نبيي...؟ — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

تيسرًا لصيام رمضان

فرض الله تعالى صوم رمضان أيامًا معدوداتٍ على المؤمنين من شهده منهم، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدم عليه صوم شعبان، فكان يصوم شعبان ما لايصوم غيره من الأشهر إذا استثنينا شهر رمضان الفضيل. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:لم يكن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يصوم شهرًا أكثر من شعبان؛ فإنه كان يصوم شعبان كله.

والحكمة في الإكثار من صيام هذا الشهر أنه توطئة وتمهيد لصوم رمضان، فإذا قدم المرء صيام أيام من شعبان على شهر رمضان هان عليه صيام رمضان، فلايجده شاقًّا على نفسه إذا دخل عليه. ومن المقرر أن الله تعالى يعين عبده على الصوم، وعلى أسبابه جميعًا. والعادة البشرية جرت أن المرء إذا استأجر أحدًا لعمل من الأعمال أعانه على توفير الأسباب، وأما أن يعينه على نفس العمل، ويشاركه فيه، ويخفف عنه وطأته، فلا. و رحمة الله تعالى بعباده بلغت قمتها و نهايتها، فهو يعين عباده على توفير الأسباب وعلى العمل نفسه، فما يقوم به العبد من العبادة و العمل الصالح فإنما هو بعون الله تعالى وتوفيقه، فالعبد فيها أشبه بطفل صغير كلفه أبوه أن يخط بيمينه، وهو يعجز عنه بنفسه، فيأخذ الأب بيده، وقد أمسك القلم، فتتحرك يده كما تحركت يد أبيه، فيخط خطا حسنًا، فينوِّه به أبوه ويستحسنه، ويقول له: واهًا لهذا الخط ثم واهًا واهًا،تحفيزًا له، والطفل البريء يظن أنه حقًّا عاد يحسن الخط والكتابة.

والأحكام الشرعية ليست شاقة وصعبة على من أراد امتثالها، فهي ميسورة وفي متناول يده، ويتجلى هذا التيسير بصفة خاصة في الصوم، وهو ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الباب: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

فهذه الآية الكريمة تعقيب على إعفاء المريض والمسافر من الصيام، فأراد الله تعالى بالصائم التيسير والتسهيل، ولم يرد به التعسير والمشقة. ففيه زجر شديد لمن يفطر في رمضان بعلة أنه شاق وعسير، وكأنه يقول بلسان حاله: أراد الله تعالى بهذا الصيام العسر، ولم يرد به اليسر، وهيهات وهيهات ذلك. فويل له و ويل له.

فهي تشير إلى قاعدة كبرى من قواعد الشريعة الإسلامية، وهي التيسير لا التعسير، وأن حياة المسلم تطبع بسمة خاصة من السماحة والبساطة، ولايشوبها تكلف ولاتعقيد: بساطة تجعله يقوم بجميع التكاليف والأحكام، ويؤدي كل نشاط في الحياة أشبه بمسيل المياه الجاري، في طمانينة وثقة ورضاء مشوب برحمة الله تعالى وإرادته التيسير.

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة السادسة صباحًا من يوم الأربعاء: ١٩/٥/١٤٤٧هـ=١٢/١١/٢٠٢٥م)

أسلوب القرآن في الترغيب في البذل والإنفاق

الإسلام دين الله الخالد الباقي ما دامت السماوات والأرض، صالح لكل زمان ومكان على اختلاف الناس في لغاتهم وأعراقهم وألوانهم وثقافاتهم، فتناولت تشريعاته الجانبين: الدين والدنيا. و تنوعت عباداته أنواعًا، فمنها عبادات بدنية وعبادات مالية، وعبادات تجمع بينهما. ففي العبادات المالية نشاهد بوضوح أن القرآن الكريم اهتم أيما اهتمام بالحث على الإنفاق في وجوه الخير، وأكثر من مدح المنفقين والثناء عليهم في عشرات الآيات،وبأسلوب مشوق وحافز وطريف، في إشارة إلى أن الأمة التي يكثر فيها الباذلون والمنفقون يعز جانبها، وتقوى شوكتها، وتسلم من بنات الدهر وأبنائه من الجهل والمرض والفقر، وتقام فيها المعاهد التعليمية، وتضمن وسائل الصحة وحفظها. وتتأكد وتتوثق أواصر المحبة والوئام بين أعضائها الأغنياء والفقراء. فحينًا يأمره بالإنفاق مما أعطاه الله تعالى ورزقه، وحينًا يصف الإنفاق بالقرض، الذي لابد أن يرتد إلى صاحبه، وحينًا يعِد بزيادة الأجر أضعافًا مضاعفة، وحينًا آخر يعد بتربيته ما أنفقه العبد كما يربي فلوه.

يقول الله تعالى في محكم تنزيله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

ويقول الشيخ علي طنطاوي في تفسير الآية: «قوله: (مِمَّا رَزَقْنَاكُم) إشعار بأن هذا المال الذي بين أيدي الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فمن الواجب عليهم شكرها بألا يبخلوا بجزء منه على الإنفاق في وجوه الخير؛ لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم. وفي قوله: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ).. الخ حث آخر على التعجيل بالإنفاق؛ لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذي تنتهي فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولاتعويض ما فقدوه من طاعات. فكأنه- سبحانه- يقول لهم: نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتي يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذي قدمتموه».

ويقول الدكتور/ وهبة الزحيلي في تفسيره: «قوله: (مِمَّا رَزَقْنَاكُم) يؤكد الحث على الإنفاق،

لأنه يدل على أنه لا يطلب إلا بعض ما رزقه الله لعباده. ويتأكد الأمر أيضًا بأنه سيأتي يوم يندم فيه الإنسان ولايفيده الندم ، وهو يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب الذي لاينفع فيه البديل أو الفداء، ولا الصداقة أو المودة، ولا الشفاعة أو الوساطة أو النسب، يوم تختلف فيه مقاييس الآخرة عن مقاييس الدنيا، وذلك مثل آية أخرى هي: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٢/٤٨]».

وقال تعالى في سياق ذكر صفات المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

وقال ابن كثير في تفسير الآية : «قال قتادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها».

وقال السعدي في تفسيره: «وفي قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم و فضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين».

وقال أبو حيان في تفسير الآية: «وكثيرًا ما نسب الله الرزق لنفسه حين أمر بالإنفاق، أو أخبر به، ولم ينسب ذلك إلى كسب العبد ليعلم أن الذي يخرجه العبد ويعطيه هو بعض ما أخرجه الله له ونحله إياه».

وقال المفتي محمد شفيع رحمه الله في تفسير هذه الآية (معارف القرآن ص ١٨٤): «هذه الجملة الوجيزة (مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ) عند التأمل توكّدُ عاطفة قوية في قلب الإنسان الكريم نحو البذل والإنفاق، وهي أن ما عند المرء من عطاء الله تعالى، وأمانته منه، وأَحْرِ بنا أن نبذل كله في سبيله سبحانه، ولم يكن ذلك منة منا. ونعم ما قال الشاعر الأردي ما معناه:

«إن الحياة منحة منه سبحانه .. والحق أنه لم يتأدَّ الواجب كما ينبغي».

ثم إنه سبحانه زاد قوله: (مما) أي لايجب إنفاق جميع ما أعطيناكم إياه؛ بل الواجب إنفاق بعضه».

ونسب الله تعالى الرزق إلى نفسه في غير آية، تنبيهًا على أنهم لاينفقون إلا مما أعطاهم الله تعالى، فيهون عليهم الإنفاق والبذل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [البقرة:٢٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٢-٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٣-٥٤].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨].

ويضرب الله تعالى الأمثال التي تحث على الإنفاق في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

قال ابن عاشور في تفسير الآية: «عود إلى التحريض على الإنفاق في سبيل الله، فهذا المثل راجع إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة:٢٥٤]. وهو استئناف بياني؛ لأن قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ [البقرة:٢٥٤] الآية، يثير في نفوس السامعين الاستشراف لما يلقاه المنفق في سبيل الله يومئذ بعد أن أعقب بدلائل ومواعظ وعبر، وقد تهيأت نفوس السامعين إلى التمحض لهذا المقصود فأطيل الكلام فيه إطالة تناسب أهميته».

ويقول في التفسير المنير: «هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله و ابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبع

مئة ضعف، فأبان تعالى أن صفة نفقات المنفقين أموالهم في طاعة الله تعالى وابتغاء رضوانه وحسن مثوبته كنشر العلم... والحج والدفاع عن الوطن والأهل، كصفة حبة زرعت في أرض خصبة، فأنبتت سبع سنابل، في كلّ سنبلة مئة حبة، وقد ثبت لدى متخصصي الزراعة أن الحبة الواحدة من قمح أو أرز أو ذرة مثلًا لا تنبت سنبلة واحدة؛ بل أكثر، قد تصل إلى أربعين أو ست و خمسين أو سبعين، وأن السنبلة قد تشتمل على أكثر من مئة حبة، وقد أنبتت فعلا مئة وسبع حبات. وهذا تصوير لمضاعفة ثواب المنفق. (وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ) أي بحسب إخلاصه في عمله، فيزيده أكثر من ذلك، والله تعالى لا ينحصر فضله، ولا يحدّ عطاؤه، ففضله واسع كثير، أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق هذه المضاعفة ممن لا يستحقها. وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبع مئة؛ لأن التحديد والتعداد يظل فيه قصور، وأما عدم التحديد بحدّ فيشير إلى احتمال النمو والبركة و الزيادة. وفيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عزّ وجلّ لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السّنة بتضعيف الحسنة إلى سبع مئة ضعف... روى الإمام أحمد [برقم:١٦٩٠] عن أبي عبيدة، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من أنفق نفقة في سبيل الله، فسبع مئة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضًا أو ماز أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنّة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله عزّ وجلّ ببلاء في جسده، فهو له حطة».

وجاء تمثيل آخر شيق للإنفاق والبذل في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥].

قال الزمخشري في تفسير الآية: «ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند اللَّه (كَمَثَلِ جَنَّةٍ) وهي البستان (بِرَبْوَةٍ) بمكان مرتفع. وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرًا (أَصابَها وابِلٌ) مطر عظيم القطر (فَآتَتْ أُكُلَها) ثمرتها (ضِعْفَيْنِ) مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل (فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ) فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها. أو مثل حالهم عند اللَّه بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطلّ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة - بعد أن يطلب بها وجه اللَّه، ويبذل فيها الوسع- زاكية عند اللَّه، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده».

وقال ابن عاشور في تفسير الآية: «عطف مثل

الذين ينفقون أموالهم في مرضاة الله على مثل الذي ينفق ماله رئاء الناس، لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون وتأكيدًا للثناء على المنفقين بإخلاص، و تفننًا في التمثيل. فإنه قد مثله فيما سلف بحبة أنبتت سبع سنابل، ومثله فيما سلف تمثيلا غير كثير التركيب لتحصل السرعة بتخيل مضاعفة الثواب، فلما مثل حال المنفق رئاء بالتمثيل الذي مضى أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حسن التخيل، فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالا حسنة تكسبها حسنًا ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه».

وهناك نوع آخر من الوصف والتشبيه حثًا على الإنفاق والبذل، فقد روى البخاري [برقم:٦٧٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل».

قال الطيبي في شرح الحديث: «إنما ضرب المثل به، لأن الصدقة نتاج عمله، ولأن صاحبه لايزال يتعاهده ويتولى تربيته. ثم إن النتاج أحوج ما يكون إلى التَّربية فطيما، وإذا أحسن القيام به وأصلحه، انتهى إلى حد الكمال. وكذلك عمل ابن آدم لاسيما الصدقة التي يجاذبها الشح، ويتشبث بها الهوى، ويقتفيها الرياء، فلا تكاد تخلص إلى الله إلا موسومة بنقائص لايجبرها إلا نظر الرحمن، فإذا تصدق العبد من كسب طيب، مستعد للقبول، فتح دونها باب الرحمة، فلا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال، ويوفيها حصة الثواب، حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم من العمل، وقوع المناسبة بين التمر والجبل».

ويقول العلامة أنور الشاه الكشميري في فيض الباري (٩٩/٣): «قوله: (كما يُربي أحدكم فلوه)، ذكر فيه صورة التَّضعيف، يعني أنك إذا أنفقت في سبيل الله درهمًا، فالله تعالى يُربِّيْه لك حتى يكون رَبَّاه أضعافًا مضاعفة، فيضعفه شيئًا فشيئًا حتى يبلغَ يوم الحشر إلى هذا القدر، فهو كتربية الفلُو، لا أنه يُضعَّف لك دُفعة واحدة، فافهمه؛ فإن تشبيهات الأنبياء عليهم السلام ليست بهينة؛ بل تبنى على الحقائق، فهذه هي الحقيقةُ التي أُريدت أن تكشفَ بها، ولعلك تفهم الآن ما ألطف قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة:٢٦١] فكما تتدرج الحبة الواحدة إلى هذه الحَبَّات، كذلك صدقتُك تربَّى من عند الله، وتكون أضعافًا مضاعفةً، حتى تبلغَ نهايته بقدر الإخلاص، إلى ما شاء الله أن تبلغ».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأنفال ١-١١)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذه السورة مدنية، نزلت بعد غزوة بدر. وما صبه المشركون ثلاثة عشر عامًا في مكة من الآلام والاضطهاد التي تقشعر منها الجلود على حفنة من المسلمين، وتحمل المسلمون المضطهدون هذه النوائب والمصائب بصبر وثبات وإخلاص واستقامة معجزة خلال ثلاثة عشر عامًا هذه يشكل ذلك حدثًا فاقد النظير في تاريخ العالم. ولم تدع قريش وأنصارها سبيلًا إلى الظلم والاضطهاد إلا سلكوها، ثم لم يأذن الله تعالى للمسلمين بأن يمدوا أيديهم إلى هؤلاء الظالمين الوحوش. وبلغ امتحان الصبر والتحمل هذا نهايته حين هجر المسلمون ديارهم الحبيبة وقرابتهم وأهلهم وعيالهم وأموالهم كلها ابتغاء رضوان الله تعالى ورسوله وخرجوا من بيوتهم. ولما تجاوز ظلمُ المشركين وكبرهم، وعجز المسلمين وضعفهم نهايته، وتخلت قلوب المسلمين من حب الوطن والقوم والمرأة والأولاد والمال وغيرها من الأغراض إلا الله تعالى، وتطهرت وامتلأت بحب الله ورسوله والتوحيد والإخلاص امتلاءً لم يدع مجالًا فيه لغير الله تعالى، أذن لهؤلاء المظلومين المضطهدين -الذين ظلوا يواجهون أنواع الهجمات من الكفار، ولم يأمنوا حتى بعد أن غادروا أوطانهم- أذن لهم بمحاربة الظالمين والثأر منهم، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج:٣٩-٤٠]. وكانت حرمة مكة تمنع المسلمين من البدء بالقتال، فاستمر الأمر إلى سنة ونصف بعد الهجرة على أن يقطعوا تجارة المشركين في مكة مع الشام واليمن، و يضعفوا وضعهم الاقتصادي، ويقووا وضع المسلمين المالي. فكانت في السنة الأولى من الهجرة

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

غـزوات وسرايـا صـغيرة في «أبـواء» و«بـواط» و«العشيرة» التي ورد تفصيلها في كتب الأحاديث والسير في هذا الصدد. وفي السنة الثانية من الهجرة بلغ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن حملة موسعة من التجارة انطلقت إلى الشام بقيادة أبي سفيان، وهذه القافلة التجارية التي كان يقودها أبو سفيان تضم ستين نفرًا من قريش، وألف بعير، وخمسين ألف دينار. ولما عادت من الشام إلى مكة، وبلغ النبي ﷺ ذلك، ففي رواية عند مسلم أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استشار الصحابة هل يتعرض لهذه الجماعة، ونأى كثير من الناس بجانبهم عن الخروج إليها كما يقول الطبري؛ لأنهم لم يتوقعوا حربًا عظيمة تتطلب جمعًا وعناية كبيرة. ثم إنهم كانوا يرون أن الأنصار إنما عاهدت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على النصر والحماية إذا ما أغار قوم على المدينة أو على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم يتضمن عهدُهم البدء بالحرب أيًّا كان نوعها. ورأى أبو بكر وعمر وسعد بن عبادة – زعيم الأنصار- رضي الله عنهم الجو السائد على الجمع فألقوا خطبًا تشجيعية، حتى خرج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنيف وثلاث مئة إلى هذه القافلة، ولم يكونوا يرجون مواجهة جيش مسلح كبير، فلم يهتموا كثيرًا بجمع الناس وتوفير الأسلحة وغيرها، وإنما خرج من تجمع في حينه بما كان معهم من العدة العادية، فروى البخاري في صحيحه عن كعب بن مالك أنه قال: ولم يعاتب أحد تخلف عنها، إنما «خرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. و علم أبو سفيان إرادةَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأرسل إلى مكة عاجلًا، فخرجوا في نحو ألف بمن فيهم صناديد قريش بعدة كاملة إلى المدينة المنورة، وكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في «صفراء» إذ بلغه أن جيش المشركين بقيادة أبي جهل وغيره من كبار أئمة الكفر قد انطلق للحرب، فأخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه بالوضع المفاجئ، وأنه يواجهكم جمعان: قافلة التجارة والجيش، وقد وعد الله تعالى أن يسلطكم على أحدهما، فأخبروني، أي الجمعين تريدون التقدم إليه؟ ولم يكونوا قد أعدوا عدتهم لمواجهة هذا الجيش، فنظرًا إلى عُدتهم وقلة عددهم ذهب بعضهم إلى أن الهجوم على القافلة التجارية أنفع وأيسر. ولم يعجب هذا الرأي رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأجاب كل من أبي بكر وعمر والمقداد بن الأسود إجابات مشجعة، وفي نهاية الأمر قام سعد بن معاذ خطيبًا في الناس، وعزموا على أن يبدوا شجاعتهم على الجيش القرشي، فالتقى

الجمعان في بدر، ونصر الله تعالى المؤمنين نصرًا عظيمًا. وقتِل صناديد الكفرة، وسبي منهم سبعون، فانكسرت شوكة الكفر وقوته، وهذه السورة تتحدث في الغالب عن هذا الحدث وأجزائه وملابساته. وأما من ذهب إلى أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خرج في هذه الرحلة من أول الأمر لمواجهة جيش قريش، الذي أراد أن يغير على المدينة المنورة، ولم ينوِ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ التعرض للقافلة التجارية أولًا ولا أخيرًا، فإنهم في الواقع يريدون أن يضحوا بتراث الحديث والسير والإشارات القرآنية كلها في سبيل مبدئهم المخترع. و مما يفوق تصورنا أن نقول: إن الكفار المحاربين-الذين لم يسلم من اعتدائهم نفوس المسلمين و لا أموالهم، ولا أمنوا عليها في المستقبل- يجوز إضرارهم في نفوسهم وأجسادهم، وأما إضرارهم في تجارتهم وأموالهم، فينافي الثقافة والإنسانية، أي أن نفوسهم صارت هدرًا لظلمهم وفسقهم، و كفرهم وطغيانهم، وأما أموالهم فلاتزال مصونة محفوظة، أو بعبارة أخرى: لابأس أن يُحرَموا حق الحياة، دون أن يحرَموا أسباب الحياة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص:٥]. وأما الادعاء بأنه لايجوز أن يبدأ المسلمون بالحرب على من لم يبدؤوا بالحرب عليهم؛ لأنه ينافي قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٠]، فبغض النظر عن أن هذه المسألة مفصولة عن هذه الواقعة؛ لأن كفار مكة سبق أن مارسوا أنواع الظلم و الاضطهاد والهجوم على المسلمين، وكانوا يهددون بذلك في المستقبل؛ بل كانوا ينسجون له الدسائس ويكاتبون في ذلك - هذا الكلام غير صحيح في نفسه؛ لأن هذه الآية نزلت في أول الهجرة، ثم نزلت آيات أخرى تأمر بالقتال مطلقًا.

هذا، والجدير بالذكر هنا أن مجرد القول بأن ادفعوا المحاربين، لايستلزم عدم الإذن بالهجوم في حال من الأحوال، وفصل الكلام على هذه المسألة الأخ العزيز محمد يحيى سلمه الله - الذي يساعدني على تحرير هذه الفوائد- في كتابه، كما أورد كاتب هذه السطور بعض الخلاصة في «رسالة الشهاب»، وسنأتي عليه من حين لآخر في «الفوائد» بإذن الله تعالى.

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ

يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤

اختلف الصحابة فيما غنموه في بدر، فكان الشبان الذين تقدموا في القتال يرون أنفسهم أحق به، وقال الشيوخ الذين كانوا على ظهور الشبان: كنا ردءًا لكم فانتصرتم فنحن أحق به. وفئة أخرى كانت تدرأ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ترى نفسها أحق بها. فدلت هذه الآيات على أن الفتح بنصر الله تعالى وحده، ولاينفع ردءُ أحد وقوته، فالمال كله ملك لله تعالى، والنبي خليفة عنه. فتقسم الغنيمة بأمر الله تعالى على لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- سيأتي تفصيل هذا الأمر لاحقًا-. والمسلمون الصادقون يخافون الله تعالى في الأمر كله، وأمرهم صلح واتفاق بينهم، ولاينازعون لأتفه الأسباب، ويطيعون الله تعالى ورسوله بغض النظر عن آرائهم وعواطفهم، فإذا ذكِرَ الله تعالى لهم اهتزوا خوفًا ومهابة، ويزدادون إيمانا ويقينًا حين يسمعون آيات الله و أحكامه. ويستسلمون له، وينفقون المال على حبه. فيحاولون نيل رضوان الله تعالى بكل شيء من عقيدتهم وخلقهم وعملهم ومالهم، وهؤلاء هم الذين يوصفون بالمؤمنين الصادقين، الذين بلغوا حسب درجاتهم إلى المقامات والمراتب العالية عند الله تعالى، الذين يغفر الله تعالى زلاتهم، ويرزقهم رزقًا كريمًا. رزقنا الله تعالى من فضله.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦

ألاترون كيف حالف المسلمين التأييد من الله تعالى وعونه وتوفيقه في هذه الحرب- غزوة بدر- من أولها إلى آخرها. وهو الله الذي وعد وعدًا حقا بنصر دين الإسلام، وأخرج نبيه لأمر حق وهو مجاهدة الكفار من المدينة المنورة إلى ساحة بدر، في حين كانت فئة من المسلمين غير راضية بمواجهة جيش قريش. وإنهم يترددون ويجادلون في حق قد تبين لهم- على لسان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قول فصل من الله تعالى لايتزحزح- أي أن الإسلام وأتباعه هم الغالبون والمنصورون بالكفاح-، وكان يشق عليهم مواجهة جيش أبي جهل حتى كما يشق على المرء أن يدخل فم الموت وهو ينظر إليه، ولكن الله تعالى خرج بهم بتوفيق منه إلى ساحة الحرب، وردهم ظافرين منصورين بعون منه سبحانه وتعالى.

فكما أن هذه المهمة تحققت أولًا وأخيرًا بنصر من الله تعالى، فليعلموا أن ما غنموه فيها له سبحانه وتعالى، ويجب إنفاقه في الوجوه التي يرشد إليها على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تنبيه:

لم أحمل الكاف في قوله: (كَمَآ أَخۡرَجَكَ) على مجرد التشبيه فيما قررت به الآية؛ بل ضمَّنتُها التعليل على رأي أبي حيان، كما صرح به أهل العلم في قوله: (وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ). وجعلت معنى قوله: (كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ) إلى آخر الآيات سببًا من أسباب قوله: (ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ)، ولم أقدِّر (أعزك اللَّهُ) ونحوه كما فعل أبو حيان. وكذلك أشرت – على وفق تصريح صاحب روح المعاني- إلى أنه ليس المراد في قوله: (كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ) مجرد آنِ الخروج من البيت؛ بل المراد الزمن الموسع الممتد من الخروج من البيت إلى الدخول في الكفاح، الذي وقع فيه جميع الأحوال المذكورة في قوله: (وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ) [الأنفال:٥-٦]. فظهرت كراهية فريق منهم وقت الخروج من المدينة بعينه، وقد ذكرناها في الفائدة الأولى من فوائد سورة الأنفال نقلًا عن صحيح مسلم والطبري. وأما آية سورة المجادلة فلعلها حصلت فيما بعد حين بلغه نبأ الجيش في «صفراء». وإذا أدركت ذلك ذهبت مغالطات بعض المبطلين هباءً منثورًا.

وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨

كان المسلمون يرغبون في الهجوم على القافلة التجارية، كيلا يشاكوا شوكة، ثم يحصلوا على المال الوفير، وأراد الله تعالى أن يصدِّق كلماته بدفع هذه الشرزمة القليلة المعوزة في مواجهة الجيش المنظم والكبير، ويستأصل كفار مكة، ليظهر صدق أمثال هذه المواعيد بصورة محيرة للعقل، فيتجلى الصدق من الكذب على رغم الكفار. وفعلًا حصل ذلك. فقد قتِل سبعون من قريش في بدر، ومنهم أبو جهل. وسبي مثلهم، مما أنقض ظهر الكفر، وزعزع بنيان مشركي مكة. فلله الحمد والمنة.

إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠

وسبقت آيات مماثلة في الجزء الرابع من القرآن الكريم في سورة آل عمران، فليرجع إلى فوائدها. اللّهم إلا أنه ذكر عدد الملائكة هنا ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف، فإن قلنا: القصة واحدة، بأن نزلت كتيبة فيها ألف منهم أولًا، ثم نزلت كتائب أخرى عددها ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف، ولعل قوله: (مُرْدِفِيْن) يشير إلى ذلك.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

شكلت معركة بدر بلاءً شديدًا وامتحانًا عظيمًا للمسلمين، فقد كانوا أقل عددًا، معوزين، ولم يخرجوا مستعدين لمواجهة عسكرية، وكان بإزائهم ثلاثة أضعاف من الجند، مدججًا بالسلاح التام، خرج في نشوة من الكبر والخيلاء، وهي أول مواجهة تذكر بين المسلمين والكفار. ثم إن الكفار سبقوا المسلمين إلى احتلال المكان المناسب والماء ونحوه، وكان المسلمون في مكان أسفل منهم، كثير الرمال، تدحض فيها الأقدام، كما أحرجهم الغبار أيضًا، ولم يجدوا الماء فشق عليهم الغسل والوضوء، وأخذهم العطش في جانب آخر. فخاف المسلمون نظرًا إلى ذلك كله، وهي فيما يبدو آثار الهزيمة، ووسوس إليهم الشيطان بأنه لابد أن يخالفكم تأييد من الله تعالى إن كنتم حقًّا مقبولين عنده، ولم تواجهوا مثل هذه الأوضاع الشاقة واليائسة. فأنزل الله تعالى بقدرته الأمطار الغزيرة، فتلبد الرمل، وتوفر الماء للغسل والوضوء، والشرب، ونجوا من الغبار. وأما حيث نزل جيش الكفار فصار طينًا ومدحضة، وشق عليهم التنقل والسير. وزالت هذه المشقات الظاهرة، فأنزل الله تعالى على المسلمين نوعًا من النعاس، فاستيقظوا وقد زال عن قلوبهم الخوف كله، وفي رواية: قضى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبوبكر الليل كله في العريش يدعوان ويتضرعان إلى الله تعالى، ونزل في الأخير نعاس على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانتبه فقال: أبشروا، هذا جبرئيل يأتي لينصركم، وخرج من العريش، وكان على لسانه (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّوْنَ الدُّبُرَ) [القمر:٤٥]. وأمطار الرحمة هذه أزالت الأحداث من الأجساد، وطهرت القلوب من وساوس الشيطان. ثم إن الرمل تلبد، فثبتت الأقدام ظاهرًا، وزال الخوف من داخلهم، وقويت قلوبهم.

* * *

الإسلام في حياتنا

بقلم: د. محمود البرشومي

أثر الدين في حياتنا:

شعبنا العربي شعب متدين من قديم الزمان، قامت حضارته الأصيلة على تمجيد الروح وعلى الإيمان بالخلود والبعث، والدين في تركيب شعبنا النفسي أساس لأي منطلق خلاق فيه، فحضارته الأصيلة مبعثها تدين فطري فيه، وأمجاده الباقية مرتبطة بإيمانه ببعث ونشور، وآثاره الشامخة أساسها الارتباط بالدين وما توحيه قيمه من عمل صالح يبقى ما بقيت الأرض والسماء.

والدين في مجتمعنا هو كالروح للجسد، وهوالمحرك الأول لكل طاقاتنا، لأنه يفسر لنا لماذا نحيا؟.. يخطط للفرد وللجماعة، ويضع الحلول الآنية والمستقبلية، ويسهم بعد اختلاطه بضمير الإنسان بالعمل على راحته وتكريمه، وهو الذي رسخ بثورته في أنفسنا قيمة العدل وقيمة الكرامة الإنسانية، وهو الذي حبب إلى نفوسنا العمل، وفرض على عقولنا التفكير.

إن كل القيم الروحية التي بشرت بها الأديان كانت قيمًا جديدة رافضة لكل ما وصل إليه الإنسان من ظلم وذل بتفريطه في الإيمان بالله العلي القدير. إن الإسلام الذي ندين به يرفض الظلم ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾(الشورى:٣٩)، أو كما يقول سبحانه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى:٤١).

والإسلام يرفض ويمنع الرق والذل والحاجة، ويثور على ظلم المرأة وظلم الفقراء، ويرفض جشع الأغنياء وطمع الأنانيين الذين يحبون ذواتهم، وهو دعوة إلى تمجيد العمل وتكريمه ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

إن الإسلام الذي ندين به ينفي الذل من قاموس الحياة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:٥٧).

ولا يرفع الإسلام شعارات بلا مضمون، وإنما يضع ما جاء به موضع التطبيق يلزم به الحاكم قبل المحكوم، ويثبت ما جاء به بسلطة الضمير والقانون بعد اقتناع تام ورضى من المطبّق عليهم، وباختيارهم الحر يتوجهون إلى حاكمهم ليحاكمهم على ما ارتكبوا من آثام في خفية عن المجتمع؛ لأن الإيمان يدفعهم إلى هذا، وضميرهم المقتنع يجعلهم يستعذبون حكم الله فيهم، وما قصة ماعز والغامدية عنا ببعيد. فقد ذهبا إلى رسول الله ﷺ بعد أن ارتكبا جريمة الزنا، وأقرا على نفسيهما بفعلها، وقالا: طهرنا يا رسول الله، واعترف كل منهما على نفسه المرة تلو المرة، وتحرى الرسول ﷺ بأسئلته المتعددة وجود الشبهة التي تحول دون إيقاع الحد، تمكينًا للقاعدة (ادرؤوا الحدود بالشبهات)، ولكنهما أصرا، فأقيم عليهما الحد.

الإسلام منهج حياة:

وليس الإسلام هو قطع يد السارق ورجم الزاني فقط، كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس من فهمهم الضيق للإسلام – أو معلوماتهم المبتسرة عنه –، ولكنه حياة كاملة وتطبيقات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنها تنزيل من حكيم عليم.

يتناول الإسلام الفرد من قبل أن يولد إلى ما بعد وفاته، ويسهم في بناء الفرد والجماعة، يحترم للفرد فرديته وحريته التي لا تجور على الجماعة، ويحترم للجماعة حقها وبدون افتئات أو تضييع لحق الفرد في أن يشعر بذاتيته وقيمته وجدواه في الحياة وعطائه فيه وحريته، لأن قيم الإسلام الروحية والأخلاقية توجد الجو الصحيح والمناخ الصالح للتقدم بالبشرية بأسرها متوائمة مع الطبيعة والكون، مسخرة له لصالح البشرية بأسرها ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:٢٩). كما يقول الله سبحانه وتعالى.

وموقف الإسلام أنه لا يحارب الغني من حيث هو غني، ولكنه يحاربه إذا وقف حجر عثرة في سبيل محاربة الفقر والوصول إلى نتائج سريعة للقضاء عليه، وإذا كان أمر الإسلام كذلك، وأنه يقدم حلولًا ويسهر على تطبيقها بقوة الإلزام

وباقتناع تام من الذين يدينون به، ويحققون ما رسمه لهم من طريق سويّ في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والعلاقات الخارجية، والعلاقات الخاصة بين الفرد والفرد، أو بين الفرد والجماعة، أو بين الجماعة والجماعة، أو بين الجماعة والجماعات الأخرى، أو بينه كدين سماوي وبين أصحاب الديانات الأخرى، والتعامل معها بسماحة وإنسانية، وأن الاختلاف هو سمة الحياة وسنتها كما يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ (يونس:١١٨-١١٩).

وإذا كان الإسلام كذلك، فأين مكانه الآن في دنيا النَّاس؟

هل حاول المسلمون وضعه موضع التنفيذ بين المذاهب المختلفة؟ هل حاول مفكرو الإسلام أن يُجْلوه ويظهروه حتى يكون أمام الناس وأمام الحكام على الأخص؟

إن الإسلام له حلوله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية، وهو واضح بأهدافه وغاياته، وهدف الإسلام إسعاد الناس في الدنيا والآخرة، فهو لا يحرِّم مباحًا، ولا متعة من متع الدنيا الحلال، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢-٣٣).

وقد يظن ظان أن الحرام أكثر من الحلال، ولكن الأمر بالعكس، فالحلال أكثر، والحرام محدود بحدود الشرع، والتحليل والتحريم هما سلطة الله وحده، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل:١١٦)، والقاعدة الأصولية تقول: (كل الأشياء على حلها ما لم يأت بتحريمها نص من كتاب الله أو سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

فما لم يأت فيه نص فهو مباح، وما نص عليه الكتاب فعلى المسلم أن يقف عنده لا يعدوه ولا يتجاوزه، ولا يحاول أن يؤوله خدمة لمصلحته

وهواه. فما حرمه الله فلمصلحة البشر، وما أحله فلمصلحة البشر أيضًا.

الإسلام سبيل السعادة:

ولقد طبق المسلمون الأولون الإسلام وجعلوه أسلوب حياتهم يأتمرون بأمره، وينتهون عما نهى الله عنه، طبقوه في كل أمر من أمورهم: في البيت طبقوه، وفي السوق أيضًا، وفي دور العلم والعبادة أقاموه، ولم يكن الإسلام سلبيًا؛ بل إيجابيًا يطبق على الجميع: على الحاكم والمحكوم، وفي كل مرافق الحياة، فسعد الناس وأسعدوا غيرهم، وتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠).

فالأمر بالمعروف هو أسلوب حياة المسلمين، والنهي عن المنكر حسبة يقوم به الجميع حتى لا يخرج أحد على أهداف الإسلام وغاياته.. أو يعيش الناس في تلفيق بعض العادات الجاهلية مع صلاة سلبية وعبادة بعيدة عن روح الإسلام، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. «ومن لم يكن عنده ورع يحجزه عن معاصي الله إذا خلا لا يعبأ الله به» كما يقول عليه الصلاة والسلام.

والإيمان بالله دافع إلى الرفعة بالحياة وإثرائها وتكريم الإنسان:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠).

هذا التكريم الذي كرم الله به الإنسان، وحمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وميزه بالعقل والفكر، ففضله على كثير ممن خلق تفضيلًا. هذا التكريم يقتضي من الإنسان أن يحافظ على إنسانيته ويرتفع بها فلا يعصي الله، ولا يشرك به ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

إن الإسلام لو طبق في حياتنا كما ينبغي، وكما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند ربه لَقُدْنَا الحياة من جديد، ولوضعنا بصماتنا على حضارة العالم كما وضعناها في الماضي، فأهدينا للعالم حضارة وفلسفة وثقافة وعلمًا وأخلاقًا وعقيدة سليمة ارتفعت بقيمة الإنسان وكرامته.

فهلا عدنا من جديد لإسلامنا الحق ولديننا الحنيف، هذا أمل كل مسلم غيور على إسلامه وإنسانيته، غيور على رفعة الإنسان وكرامته.

* * *

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(سورة النساء ١١٢-١٢٦)

بقلم: رئيس التحرير

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٢].

فإن قلت: الخطيئة والإثم لفظان بمعنى، فما فائدة التكرار؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: هما بمعنى، وكرر لاختلاف اللفظ تاكيدًا ومبالغة. ذكره الثعالبي، والقرطبي، و الشوكاني(١).

الوجه الثاني: أن المراد من الخطيئة غيرالإثم، ثم اختلفوا في تفسير كل واحد منهما على أقوال:

القول الأول: أن «الخطيئة» يمين السارق الكاذبة «والإثم»: سرقته الدرع، ورميه اليهودي، قاله ابن السائب. ذكره ابن الجوزي(٢).

القول الثاني: أن «الخطيئة» ما يتعلق به من الذنب، «والإثم»: قذفه البريء، قاله مقاتل. ذكره ابن الجوزي(٣).

القول الثالث: قال الطبري: ومن يعمل خطيئة، وهي الذنب، أوإثمًا، وهو ما لا يحلّ من المعصية. وإنما فرق بين الخطيئة والإثم؛ لأن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغيرالعمد، والإثم لا يكون إلا من العمد، ففصل جلّ ثناؤه لذلك بينهما، فقال: ومن يأت خطيئة على غيرعمد منه لها، أوإثما على عمد منه ثم يرم به بريئا، يعني بالذي تعمده بريئا. وقاله - أيضا- أبو سليمان الدمشقي. وذكرالزجاج أن الخطيئة نحو قتل الخطأ الذي يرتفع فيه الإثم. وذكره الرازي وابن الجوزي وأبو السعود، والآلوسي والقرطبي(٤).

القول الرابع: أنه لما سمى الله عزوجل بعض المعاصي خطيئة، وبعضها إثمًا، أعلم أن من كسب ما يقع عليه أحد هذين الاسمين، ثم قذف به بريئا، فقد احتمل بهتانا، ذكره الزجاج أيضا. ذكره ابن الجوزي(٥).

القول الخامس: ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة. ذكره الرازي، والزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والآلوسي والقرطبي،

والشوكاني[٦].

القــول الــسادس: الخطيئــة: سرقــة الــدرع، والإثم: يمينه الكاذبة. ذكره البغوي[٧].

القــول الــسابع: الأول ذنــب بينــه وبــين ربــه، والثــاني ذنــب في مظــالم العبــاد. ذكــره النــسفي، والرازي[٨].

القول الثامن: قال الآلوسي: وقيل: الخطيئة الشرك، والإثم ما دونه. وفي «الكشاف» الإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب، والهمزة فيه بدل من الواو كأنه يَثم الأعمال أي يكسرها بإحباطه، وفي «الكشف» كأن هذا أصله، ثم استعمل في مطلق الذنب في نحو قوله تعالى: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ (الشورى:٧٣) ومن هذا يعلم ضعف ما ذكره صاحب القيل[٩].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]

فإن قلت: من يشاقق الرسول هو متبع غيرسبيل المؤمنين ضرورة، فما فائدة هذا العطف؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن هذه الجملة المعطوفة هي على سبيل التوكيد والتشنيع، وإلا فمن يشاقق الرسول هو متبع غير سبيل المؤمنين ضرورة، ولكنه بدأ بالأعظم في الإثم، وأتبع بلازمه توكيدًا[١٠].

الثاني: وكأنّ فائدة عطف اتّباع غير سبيل المؤمنين على مشاقّة الرسول الحَيطةُ لحفظ الجامعة الإسلامية بعد الرسول، فقد ارتدّ بعض العرب بعد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وقال الحُطيئة في ذلك:

أطعنا رسولَ اللَّه إذ كان بيننا

فيا لعباد الله ما لأبي بكر

فكانوا ممّن اتّبع غير سبيل المؤمنين ولم يُشَاقّوا الرسول. ذكره ابن عاشور[١١].

الثالث: قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥] هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفًا لهم و تعظيمًا لنبيهم، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، قد ذكرنا منها طرفًا صالحًا في كتاب أحاديث الأصول[١٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

فإن قلت: هذه الآية مكررة في هذه السورة، فما فائدة هذا التكرار؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة في القرآن، وأنه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين، وقد أعاد هذه الآية دالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة، وقد اتفقوا على أنه لا فائدة في التكرير إلا التأكيد، فهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد. ذكره الرازي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود والشوكاني(١٣).

الثاني: أن الآيات المتقدمة إنما نزلت في سارق الدرع، وقوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ (النساء:١١٥) إلى آخر الآيات إنما نزلت في ارتداده، فهذه الآية إنما يحسن اتصالها بما قبلها لو كان المراد أن ذلك السارق لو لم يرتد لم يصر محرومًا عن رحمتي، ولكنه لما ارتد وأشرك بالله صار محرومًا قطع عن رحمة الله، ثم إنه أكد ذلك بأن شرح أن أمر الشرك عظيم عند الله فقال ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ يعني ومن لم يشرك بالله لم يكن ضلاله بعيدًا، فلاجرم لا يصير محرومًا عن رحمتي، وهذه المناسبات دالة قطعًا على دلالة هذه الآية على أن ما سوى الشرك مغفور قطعًا سواء حصلت التوبة أو لم تحصل. ذكره الرازي، والزمخشري، والبيضاوي وأبو السعود، والشوكاني، وابن الجوزي(١٤).

الثالث: أن للآية سببًا آخر في النزول، فقد أخرج الثعلبي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن شيخًا من العرب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله تعالى منذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه وليًا ولم أوقع المعاصي جراءة، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله تعالى هربًا وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله تعالى؟» فنزلت. ذكره الزمخشري و البيضاوي والآلوسي والبغوي، وأبوالسعود، والشوكاني، وابن الجوزي(١٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢].

فإن قلت: ﴿وَعۡدَ اللَّهِ حَقّٗا﴾ مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلٗا﴾ توكيد ثالث بليغ. فما فائدة هذه التوكيدات؟

قلنا: فائدتها: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيبًا للعباد في إيثار ما يستحقون به تنجز وعد الله، على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان. ذكره الزمخشري، و الرازي، والطبري، وأبوالسعود، والبيضاوي،

والشوكاني، والآلوسي، والنسفي[١٦].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤].

فإن قلت: إنه لايظلم الصالحون ولاغيرهم كما قال ﴿وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦) وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:١٠٨]. فما فائدة تخصيص الصالح به؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن يكون الراجع في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ عائدًا إلى عمال السوء وعمال الصالحات جميعًا. ذكره الرازي[١٧].

الثاني: أن كل ما لا ينقص عن الثواب كان بأن لا يزيد في العقاب أولى هذا هوالحكم فيما بين الخلق، فذكر الله تعالى هذا الحكم على وفق تعارف الخلق. ذكره الرازي، والزمخشري، وأبو السعود[١٨].

وعن هذا المعنى عبر الآلوسي بقوله: ويعلم من نفي تنقيص ثواب المطيع نفي زيادة عقاب العاصي من باب الأولى؛ لأن الأذى في زيادة العقاب أشد منه في تنقيص الثواب، فإذا لم يرض بالأول - و هو أرحم الراحمين - فكيف يرضى بالثاني - وهو السر في تخصيص عدم تنقيص الثواب بالذكردون ذكر عدم زيادة العقاب - مع أن المقام مقام ترغيب في العمل الصالح فلا يناسبه إلا هذا[١٩].

الثالث: أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالًا على ذكره عند الآخر؛ لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم، ولأن ظلم المسيء أن يزاد في عقابه، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنى عنه، وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب، فجاز أن ينقص من الفضل؛ لأنه ليس بواجب. فكان نفي الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل. ذكره الزمخشري[٢٠].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:١٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلّ شَيْء﴾ فيه وجهان: أحدهما: المردا منه الإحاطة في العلم. والثاني: المراد منه الإحاطة بالقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ (الفتح:٢١).

وعلى هذا القول: لوقال قائل: لما دل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ على كمال القدرة، فلو حملنا قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلّ شَيْء مُّحِيطًا﴾ على كمال القدرة لزم التكرار؟

والجواب: أن قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ لا يفيد ظاهره إلاّ كونه تعالى قادرًا

مالكًا لكل ما في السماوات وما في الأرض، ولا يفيد كونه قادرًا على ما يكون خارجًا عنهما ومغايرًا لهما، فلما قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ دل على كونه قادرًا على ما لا نهاية له من المقدورات خارجًا عن هذه السماوات والأرض، على أن سلسلة القضاء والقدر في جميع الكائنات والممكنات إنما تنقطع بإيجاده وتكوينه وإبداعه، فهذا تقرير هذا القول، إلاّ أن القول الأول أحسن لما بينا أن الإلهية والوفاء بالوعد إنما يحصل ويكمل بمجموع القدرة والعلم، فلا بدّ من ذكرهما معًا، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لما ثبت في علم الأصول أن العلم بالله هو العلم بكونه قادرًا، ثم بعد العلم بكونه قادرًا يعلم كونه عالمًا لما أن الفعل بحدوثه يدل على القدرة، وبما فيه من الأحكام والإتقان يدل على العلم، ولا شك أن الأول مقدم على الثاني. ذكره الرازي(٢١).

* * *

الهوامش:

(١) الثعالبي في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٣٨٠؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(٢) ابن الجوزي تفسير الآية.

(٣) ابن الجوزي تفسير الآية.

(٤) الطبري٥/١٧٦؛ الرازي ١١/٢١٥؛ ابن الجوزي تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٣٨٠؛ أبو السعود ٢/٢٣٢؛ الآلوسي٥/١٤٢.

(٥) ابن الجوزي تفسير الآية.

(٦) الرازي ١١/٢١٥؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٣٨٠؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ أبوالسعود٢/٢٣٢؛ الآلوسي٥/١٤٢.

(٧) البغوي في تفسير الآية.

(٨) النسفي في تفسيرالآية؛ الرازي ١١/٢١٥.

(٩) الآلوسي٥/١٤٢.

(١٠) أبوحيان في تفسير الآية.

(١١) ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٢) ابن كثير ٢/٣٦٥.

(١٣) الرازي١١/٢٢٠؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٥٣؛ أبو السعود ٢/٢٣٤؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(١٤) الرازي١١/٢٢٠ ؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٥٣؛ أبوالسعود ٢/٢٣٤؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ ابن الجوزي تفسير الأية.

(١٥) الزمخشري في تفسيرالآية؛ الآلوسي٥/١٤٨؛ البغوي في تفسير الآية؛ البيضاوي٢/٢٥٣؛ أبو السعود ٢/٢٣٤؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ ابن الجوزي تفسير الأية.

(١٦) الزمخشري في تفسير الآية؛ الرازي ١١ /٢٢٤؛ الطبري ٥/١٨٤؛ أبو السعود٢/٢٣٦؛ البيضاوي ٢/٢٥٦؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٥١.

(١٧) الرازي ١١/٢٢٨.

(١٨) الرازي ١١/٢٢٨؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوالسعود٢/٢٣٧.

(١٩) الآلوسي٥/١٥٣.

(٢٠) الزمخشري في تفسير الآية.

(٢١) الرازي ١١/٢٣١.

* * *

حسن البيان فيما تشابه من آي القرآن

بقلم: الأستاذ فهيم سالم المليجي

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠).

كنت وعدت أن أتكلم على ما تشابه من آي القرآن بقدر الإمكان حسب ما يهبني الله من التوفيق في دفع تلك الشبهات التي تكون مثارًا للملحدين المتشدقين بالعبارات التي تذهب بألباب البسطاء إلى سعة الفضاء، ولكني أريد أن أسلك سبل الهداية والإرشاد في تفهم كلام الله ورسوله ودفع الشبهات عنه وإيضاح معناه حتى يخلص سائغًا للشاربين، ولنتكلم اليوم على قصة أبي البشر آدم عليه السلام، وهي أول ما جاء في قصص القرآن، فنقول: ذهب بعض الملحدين إلى إنكار نبوة آدم عليه السلام، واستندوا إلى شبهة، هي أن القرآن لم يصرح بنبوة آدم عليه السلام، وليس هنا أمة يرسل إليها رسول، ولم يوجد في ذاك الوقت إلا آدم وزوجه، فكيف يكون نبي أو رسول ولا أمة يرسل إليها، أيكون مرشد بغير مسترشدين، وهذه شبهة واهية لا يصح الاستناد إليها ولا تستحق الرد عليها، غير أننا نبين وجه بطلانها؛ لأنهم استندوا إليها وأسرفوا في التعويل عليها، فمن حقنا أن نبين وجه الحق عسى أن ينقذوا من سبل الضلالة، ويبصروا بضياء الهدى فنقول: أجمع الناس على أن آدم عليه السلام نبي ورسول، أما النبي فهو ذكر حر أوحي إليه بشرع يعمل به، وإن لم يؤمر بتبليغه، فلا يحتاج النبي إلى أمة يبلغها ما أوحي إليه؛ لأنه إنما يعمل بما أوحي إليه في خاصة نفسه، فوجود الأمة ليس مستلزمًا للنبي، وأما الرسول فهو ذكر حر أوحي إليه بشرع يعمل به ويبلغه لأمته، فآدم نبي ورسول، أما النبوة فظاهرة مما مضى في تعريفنا وشرحه. وأما الرسالة فإن آدم كانت له أمة وهم زوجه وأولاده، وهي جماعة، والأمة هي الجماعة وهي تصدق على كثرة، وليس بلازم أن تكون كثرة متناهية أو غير متناهية؛ بل يكفي وجود الأمة في أي جماعة، وإن قلت: وآدم وزوجه وأولاده جماعة تحتاج إلى إرشاد وهداية ونبراس تسير على ضيائه في حياتها، فتحققت رسالة آدم عليه السلام. الدليل: قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ

إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ﴾ (المائدة:٢٧).

في هذه الآية دليل على رسالة آدم عليه السلام؛ إذ كانت شريعته أن لايتزوج أخ وأخت في بطن واحدة، وإنما يتزوج الأخ أخته من بطن أخرى، ويحرم على الآخرين من بطن واحدة عقدة النكاح بينهما، وكانت توأمة قابيل أجمل من توأمة هابيل، فحسد قابيل هابيل على توأمته، وأرادها لنفسه بغيًا على شريعة آدم وخروجًا عليها، فحكم آدم بينهما رب السماء فأمرهما أن يقرب كل منهما قربانًا، فقرب كل قربانه، وكان المقبول إذ ذاك من القرابين علامته أن تنزل نار من السماء فتأكله، فنزلت نار وأكلت قربان هابيل ولم تتعرض لقربان قابيل إظهارًا لأحقية شرع آدم عليه السلام، فهذا دليل على أن آدم كان له شرع أوحي به إليه وبلغه أمته، زوجه وأولاده الأقربين، وقضى به بينهم ومن خرج عليه استحق العقاب.. وأجمع جميع الناس على هذه القصة، وأن آدم كانت له شريعة يقضي بها بين أمته، وأجمعت الأمة على ذلك، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣).

وذكر آدم ونوحٍ في الاصطفاء دليل على نبوتهما، وإن صرح بأنه أرسل نوحًا في كثير من آيات القرآن، ولم يصرح بإرسال آدم، لكنه جمع بينهما في ذكر تعداد الأنبياء؛ وهذا كافٍ في الدلالة على نبوة آدم ورسالته، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا سيد ولد آدم، ولا فخر، كل الأنبياء تحت لوائي، آدم فمن دونه.

وأنت خبير بأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بنبوة آدم صريحًا حيث صرح بأنه تحت لوائه مع جميع الأنبياء، وقدمه في الذكر حيث قال: آدم فمن دونه. وأجمعت الأمة على نبوته، والإجماع حجة.

ولنعد إلى الكلام في الآية:

ورد على الآية شبهة في قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قال الذين في قلوبهم زيغ: إن هذه الصيغة يفهم منها الاعتراض على الله تعالى في فعله. والاعتراض على الله حرام، والملائكة معصومون عن معصية الله. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، كما تقرر في فن الكلام، فكيف يسوغ للملائكة أن يعترضوا على ربهم، وهم المعصومون، وتلك حجة داحضة، فإن الملائكة لا يريدون الاعتراض على ربهم، وإنما يريدون الاستخبار والاستفهام عن حكمة جعل الله خليفة في الأرض، وعن غاية تلك الخلافة، فكأنهم يقولون: أتجعل خليفة في الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء ويفعل الشرور والقبائح، والحال أننا نسبح بحمدك ونقدس لك، فنحن عنصر الخير، ولا تريد أن يبقى عنصر الخير فقط في خلقك، وهل أردت أن تجعل عنصرًا للخير وعنصرًا للشر؛ ليكون في خلقك خير وشر، فيصرف فضل الخير وينكر

فعل الشر، فإنه لا يدرى مزية الشيء إلا بضده، وبضدها تتميز الأشياء، فإن قيل: هذا يستدعي جهل الملائكة ببعض الأمور، ونصوا على أن علم الملائكة ضروري للأشياء. قلنا: إن علم الملائكة ليس ضروريًا إلا لما علمهم الله، ألا ترى أنهم يجهلون بعض الأشياء وقد جهلوا أسماء المسميات التي عرضها الله عليهم. فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، ألم يعترفوا بالعجز حيث يقولون: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة:٣٢).

هذا دليل ناصع على أن الملائكة لا يعلمون إلا إذا علمهم الله. قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال المفسرون: جَاعِلُ، اسم فاعل من جعل بمعنى صير، وَفِيْ الْأَرْضِ مفعول ثان، وخَلِيْفَةً مفعول أول. أي إني مصير خليفة في الأرض. وهذا المعنى يصح لو كان آدم موجودًا مثلا وكان غيره خليفة وحوله الله إلى الخلافة، فإن التصيير تحويل، وهو عرض طارئ على شيء موجود كما يقال: صيرت الطين إبريقًا أو جعلت الحديد نارًا، ولكن لم يكن شيء من ذلك فلا مانع عندي من أن يكون جاعل بمعنى خالق، أي إني خالق خليفة في الأرض، فهو إذًا متعد لمفعول واحد، وهو لفظ خليفة، والظرف متعلق بجاعل أو بوصف لخليفة، أي خليفة كائنا في الأرض.. الخليفة.. أما أن يكون بمعنى الذي يخلف غيره، أي يأتي بعده ليستعمر مكانه، كما يخلف الولد أباه، فيكون بدله في خواصه ومزاياه، ويكون على هذا المعنى آدم خليفة في الأرض مستعمرًا لها هو وأبناؤه من بعده جاءوا عقب الجن، والجن الذين كانوا يستعمرون الأرض قبله كما قيل، فهو وأبناؤه يستعمرونها ويعيثون فيها فسادًا كما عاث من قبلهم، وهذا وجه استغراب الملائكة، وهو الذي ساقهم إلى الاستفهام عن حكمة ذلك الجعل، وكان استفهامهم للعلم والإفادة لا للاعتراض، كما قيل من بعض الزائغين؛ وأما أن يكون معنى الخلافة السيطرة وسن القوانين النافعة للترقي في درج الكمال، فيكون المعنى: ﴿إِنِّي جَاعِلُ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، خليفة يسن القوانين والنظم، ويرتقي بالبشرية إلى درج الكمال الأعلى.

وهذا المعنى يتحقق في آدم وبعض ذريته، كالأنبياء والمصلحين والهداة الراشدين وإن كان بعض أبنائه مفسدين يسفكون الدماء ويفعلون الحرام ويظلمون، فالخلافة متحققة في أبيهم آدم والمرشدين من بعده، وهذا المعنى يعزز نبوة آدم ورسالته؛ لأنه الأصل في الخلافة وهو المخبر بخلافته، ولما عجب الملائكة من خطاب ربهم وسألوا عن حكمة ذلك استفهامًا بريئًا من شبهة الاعتراض، أراد الله سبحانه أن يعلمهم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذوالفضل العظيم.

* * *

أدب الاختلاف في الإسلام

اجتهد الصحابة واختلفوا في عصر الرسالة دون تجاوز أو شقاق

بقلم: الأستاذ محمد عبد الشافي القوصي

«الاختلاف» - كما يقول الدكتور طه جابر العلواني - معناه: أن ينهج كل شخص طريقًا مغايرًا للآخر في حاله أو قوله، وهنا يراد بالخلاف أو الاختلاف مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة أو الموقف.

أمَّا «الجدل»: فهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمقابلة، فإذا اشتدت خصومة المتجادلين، وآثر كل منهما الغلبة بدل الحرص على ظهور الحق ووضوح الصواب، وتعذر أن يكون بينهما تفاهم أو اتفاق سميت هذه الحالة الشقاق، وأمَّا الاختلاف الذي هو جزء من الظاهرة الطبيعية فهو ظاهرة إيجابية؛ كثيرة الفوائد، منها: أنه يتيح التعرف على جميع الاحتمالات، وفيه رياضة للأذهان، وتلاق للآراء، وتعدد للحلول.

أمَّا أقسام الخلاف من حيث الدافع، فمنها:

الأول: خلاف أملاه الحق، ودفع إليه العلم، واقتضاه العقل، وفرضه الإيمان كمخالفة أهل الإيمان لأهل الكفر والشرك والنفاق.

والثاني: خلاف أملاه الهوى: وهذا النوع من الخلاف مذموم بكل أشكاله؛ لأن حظ الهوى غلب الحرص على تحري الحق.

والثالث: خلاف يتردد بين المدح والذم، وهو خلاف في أمور فرعية، تتردد أحكامها بين احتمالات متعددة، وهذا النوع من الاختلاف مزلة الأقدام؛ إذ يمكن فيه أن يلتبس الهوى بالتقوى، والعلم بالظن، والراجح بالمرجوح، والمردود بالمقبول.

رأي العلماء في الاختلاف:

أمَّا رأي العلماء في الاختلاف،

فقد رأى ابن مسعود أن الاختلاف كله شر.

وقال السبكي: إن الاختلاف في الأصول هو بدعة وضلال. والاختلاف في الآراء والحروب، فهو حرام. والثالث: الاختلاف في الفروع.

أما ابن حزم فلم يرَ في الاختلاف شيئًا من الرحمة؛ بلْ اعتبره كله عذابًا.

* * *

لقــد اجتهــد الــصحابة واختلفــوا في عــصر الرسـول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كـما في واقعـة بنـي قريظـة، دون أن يجاوزوا ذلك إلى التنازع والشقاق، وقد كان النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحـذرهم مـن الاخـتلاف (لا تختلفـوا فتختلـف قلـوبكم). (وإنـما هلـك مـن كـان قبلكم باختلافهم في الكتاب).

وقـد كانـت هنـاك معـالم لأدب الاخـتلاف في عصر النبوة، فكانوا يحاولون أن لا يختلفوا ما أمكن، وإذا اختلفـوا ردوا الأمـر لكتـاب الله ورسـوله ﷺ والالتزام بالتقوى وتجنب الهوى.

أمَّـا بعـد وفـاة الرسـول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقـد اختلفـوا في وفاتـه، واختلفـوا في دفنـه، واختلفـوا في خلافتـه، واخـتلافهم حـول قتـال مـانعي الزكـاة، واختلفـوا في سـبي أهـل الـردة، وفي قـسمة الأراضي المفتوحـة، والمفاضـلة في العطـاء، وقـد كـان هنـاك اختلاف «عمرو» و«علي» في نطاق أدب رفيع، وقد خـالف ابـن مسعود عمر في مئة مسألة، ومع ذلك فإنَّ اختلافهم هذا ما نقص ذلك من حب أحدهم لصاحبه، وكان هناك اختلاف بين ابن عباس وزيد بـن ثابت، وحتى بعـد وقـوع الفتن بينهم، فـما نسي أصـحاب الرسـول فـضائل أهـل الفـضل منهم، ولا أنستهم الأحداث الجسام مناقب أهل المناقب منهم؛ فهذا عمران بن طلحة يدخل على علي بن أبي طالب بعـد أن فـرغ مـن معركـة الجمل، فيرحب به ويدنيه، ويقـول: إني أرجـو الله أن يجعلنـي الله وإيـاك مـن الذين قال الله عزَّ وجل عنهم: ﴿وَنَزَعْنَـا مَـا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَـا كُنَّـا لِنَهْتَـدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِـٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّـةُ أُورِثْتُمُوهَـا بِمَـا كُنـتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:٤٣). ثم أخذَ يسأله عن أهل بيت طلحـة فـردًا فـردًا، وعـن عـثمان، وعـن أمهـات أولاده. وبعـد وفـاة عـليّ وصـف ضرار بـن حمـزة الكنـاني عليّـا لمعاويـة، فبكـى معاويـة، وقـال: هكـذا كـان أبـو الحـسن، وقـد اتـسم الاخـتلاف في عهـد الخلافة الراشدة بسمات، منها:

أنهـم كـانوا يتحاشـون الاخـتلاف، وإذا وقـع، فقـد كـانوا يقفـون عنـد الحـدود، ويـسارعون للاستجابة للحق، وقد كانت أخوة الإسلام بينهم أصلًا من أصول الإسلام المهمة.

وكانـت الاختلافـات في مـسائل الفـروع، وكانت دراستهم لاستدراكات بعضهم على بعض على أنها معونة يقدمها المستدرك، أمَّا التابعون من أمثـال: سـعيد بـن المـسيب، وعطـاء بـن أبي ربـاح،

وطاوس، والحسن البصري، وعلقمة، وغيرهم، فكانوا يمارسون الفتوى والاجتهاد بمشهد من أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذين تلقوا العلم عنهم، وتربوا على أيديهم، وتأدبوا بآدابهم، وتأثروا بمناهجهم، فما خرجوا عن آداب الصحابة في الاختلاف عندما اختلفوا.

لكن الاختلاف السياسي كان له أثره في الاختلافات الاعتقادية والفقهية؛ فبعد مقتل الخليفة عثمان انتقلت الخلافة للكوفة والشام، حيث كان العراق بيئة خصبة لتفاعل الأفكار السياسية وتصديرها إلى جهات مختلفة؛ ففيه نشأ التشيع والجهمية والمعتزلة والخوارج وأهل الأهواء والبدع، وبدؤوا في وضع الحديث وتأليف القصص ذات المغزى السياسي. هذه الأمور جعلت الفقهاء يضعون من الشروط لقبول السنن والأخبار ما لم يكن من سبقهم يلتفت إليها، فقد كان في العراق مدرسة الرأي التي تشتهر بالقياس، أمَّا المدينة فكانوا لا يأبهون بالعلل إلَّا حين يعييهم الوصول إلى نص أو أثر، وهناك الكثير من المناظرات التي تبيِّن وجود آداب عامة للاختلاف، التزمها الجميع؛ كمناظرة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مع الخوارج التي أدت إلى استجابة الكثيرين منهم للحق، وحينما ذكِّروا بالقرآن تذكروا رغم استحلالهم لدماء مخالفيهم.

* * *

لقد اشتهر عدد من المذاهب الفقهية بعد عصر الصحابة، من هذه المذاهب: مذهب الحسن البصري، ومذهب أبي حنيفة، ومذهب الأوزاعي، ومذهب سفيان الثوري، ومذهب الليث بن سعد، ومذهب مالك، ومذهب سفيان بن عيينة، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل.

فالاختلاف بين مدرسة سعيد بن المسيب التي قامت على فكر الصحابة وآثارهم، ومدرسة إبراهيم النخعي التي اعتمدت الرأي إن غاب الأثر؛ وكان لذلك أثره في مناهج المدرستين.

فمنهج أبي حنيفة كان الأخذ بكتاب الله ثم سنَّة رسول الله والآثار الصحاح عنه، ثم قول الصحابة، فإذا انتهى الأمر عند التابعين، فهو يجتهد كما اجتهدوا.

أمَّا (منهج مالك) فكان الأخذ بنص الكتاب العزيز وبظاهره، ثم بدليله، ثم بمفهومه ثم ببينته، ومن سنَّة رسول الله هكذا، ثم الإجماع، ثم القياس، ثم عمل أهل المدينة، ثم الاستحسان ثم الحكم بسد الذرائع، ثم المصالح المرسلة، ثم قول

الصحابي، ثم مراعاة الخلاف، ثم الاستصحاب، ثم شرع من قبلنا.

أمَّا (منهج الشافعي) فقد كان يرى أن القرآن والسنَّة سواء في التشريع، فإنْ لم يكن فقياس عليهما، ولا يقاس أصل على أصل، وقد أبطل الاستحسان والمصالح المرسلة.

أمَّا (منهج أحمد بن حنبل) فكان يأخذ بالنصوص من القرآن والسنَّة، ثم فتوى الصحابة، ثم القياس، ثم سد الذرائع.

أمَّا (منهج أبي داود الظاهري) فكان التمسك بظواهر القرآن والسنَّة، ويستدل بالإجماع الواقع في عصر الصحابة فقط، ولا يعمل بالقياس ما لم تكن العلة منصوصة ومقطوعة بوجودها ويحرم الاستحسان، ويحرم العمل بشرع من قبلنا، ولا يحل العمل بالرأي.

إن محاولة الدفاع عن آراء الأئمة والتشبث بها والانشغال بذلك عن الكتاب والسنَّة كان من أبرز دواعي الاختلاف السيئ الذي لم تهدف إليه الأئمة أنفسهم، وقد أبعد هذا المتأخرين من المسلمين عن معالي الأمور، وشغلهم بالفروع فوق ما تستحق من الاهتمام.

* * *

لقد كان الاختلاف أمرًا طبيعيًا في عهد النبوة، لأنه دليل على واقعية هذا الدِّين، وقد كان الاختلاف تحريًا للحق، ورغبةً في إصابة قصد الشارع للأحكام. ولكن ظهور مدرستي: «الكوفة» و«البصرة» - كبيئة حقيقية لتفاعل الأفكار السياسية، وتعدد الفرق المختلفة – أدى إلى تعدد المناهج العقلية والفكرية، وأصبح لكل فرقة منطلقات وقواعد لتعاملها مع النصوص، وتفسير المصادر، وموقفها من القضايا المختلفة.

أسباب الاختلاف

وقد كانت هناك أسباب للاختلافات الفقهية بين الفقهاء في عصر الفقهاء، منها: أسباب تعود إلى اللغة، وذلك راجع إلى اشتراك اللفظ الواحد في أكثر من معنى، وورود تراكيب بين الحقيقة والمجاز.

ومنها: أسباب تعود إلى رواية السنن، فقد لايصل الحديث إلى مجتهد ما، وأحيانًا يصل إليه، ولكن يرى فيه علة، وقد يصل بألفاظ مختلفة، وقد يسمع جزءًا من الحديث، وقد لا يعلم بناسخ الحديث، أو مخصص لعامه، أو مقيد لمطلقه.

ومنها: أسباب تعود لقواعد أصولية، وضوابط الاستنباط، مثل: المصالح المرسلة، وسد

الذرائع، والاستحسان، والاستصحاب، والعرف، وغيرها.

* * *

لقد اختلفت الأمة في كثير من الأمور الاجتهادية، وهم جميعًا على الهدى، ما دام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق، فقد كان بعضهم يقرأ البسملة، وبعضهم لا يقرأها، وهذا لم يمنع بعضهم أن يصلِّي خلف بعض.

فهذا هو الإمام مالك قد وضع خبرته في كتاب الموطأ، ولكنه نهى المنصور أن يجمع الناس عليه، أمَّا الليث بن سعد، فقد بعث برسالة إلى الإمام مالك ذكر فيها بعض أوجه الاختلاف بينهما في أدب جم، وقد التقى الإمام مالك مع الإمام أبي حنيفة، وقد أثنى كل واحد منهما على صاحبه. ورغم اختلاف المذهبين، فقد ذهب محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ومدوّن مذهبه إلى المدينة، ولازم الإمام مالك ثلاث سنين، سمع منه الموطأ، ولم يمنعه اختلاف مذهبه عن ذلك، وقد قال محمد بن الحسن عن الشافعي: إنه ما كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا إلَّا الشافعي.

* * *

لقد انتهى الاجتهاد بعد القرن الرابع، ففي القرن الرابع كان أهل ا لعلم يشتغلون بالحديث، ويتلقون من حديث رسول الله، وآثار أصحابه، ولا يحتاجون معه لشيء آخر، فإذا لم يكفِ ذلك رجعوا إلى كلام من سبقهم من الفقهاء، فكانوا ينسبون للمذاهب، ولكن مع مجيء القرن الخامس، ونتيجة للفصام بين «القيادة السياسية» و«القيادة الفكرية» ظهرت ممارسات سياسية غير إسلامية، وظهر فقه نظري افتراضي لا مساس له بقضايا الناس، وتحول الفقه من وسيلة لضبط حياة الناس ووقائعها بضوابط شرعية إلى وسيلة تدبير الواقع المطلوب، ويكفي أن ظهر باب من أبواب الفقه عرف بـ«باب المخارج والحيل» ونظرًا لتغير الأوضاع وتبدل النفوس من الصالح إلى السوء، فقد رأى بعض العلماء أنه يجب اتباع التقليد؛ حتى يتم التخلص من فقهاء السلطان، حتى اعتبروا تقليد الأئمة الأربعة، والتزام أقوالهم والتخريج عليها ضمانة واقعية من الاجتهادات المنحرفة التي تصدر عن غير أهل الورع من حملة العلوم الشرعية خدمة للأغراض، وتحقيقًا للرغبات.

ومن هنا بدأ إهمال الناس للكتاب الكريم وعلومه والسنَّة وفنونها؛ فركدتْ حركة الفكر، وزويتْ شجرة الاجتهاد، وانتشرت الفتن، وعم

الجهل، وشاعت الخرافات، فاتخذت أشكالًا مختلفة؛ مما أفسح المجال أمام الغزاة ليكتسحوا الحضارة الإسلامية.

وعندما قامت النهضة الأوربية الحديثة وجد الأوربيون أنه لم يبقَ من مقومات الحضارة الإسلامية الحقيقية شيء يذكر؛ فالعقيدة خاملة، وإيمان الكثيرين مزعزع، والسلوك منحرف، والاستقامة معدومة، والفكر جامد، والاجتهاد معطل، والفقه مفقود، والبدع قائمة، والسنَّة نائمة، فاستغلوا الفرصة، وسيطروا على البلاد، وامتلكوا أزمة العباد، وقد عرفوا مكمن فضل هذه الأمة؛ فوجهوا الاهتمام إلى وضع برامج التعليم وبناء مؤسساته بالطريقة التي تضمن لهم تغيير أفكار المسلمين؛ حتى تصبح مهيأة لقبول الأوضاع والأفكار العالمية الجديدة، فوضعوا جميع العراقيل أمام التعليم الإسلامي.

* * *

سبيل النجاة

وسبيل النجاة في هذا يتمثل في ضرورة تعديل مسار الفكر لدى المسلمين، بحيث نعالج الأزمة الفكرية التي تبرز من خلال انهيار مؤسسات الأمة، وانعدام منظماتها، وتدني مستوى الوعي والمعرفة والتربية في أبنائها، وتفكك علاقاتها، وانحراف الكثرة من قيادتها، وإحباط المحاولات الخيرة للنخبة الصالحة من أبنائها، ولتحقيق هذا، ينبغي أن ننتبه لعدة أمور:

- لابدَّ من إدراك الشباب أن الأخذ عن القرآن والسنة بمبادرات فردية فيه الكثير من المحاذير، فلابدَّ من الاستعداد السابق ثم التزود لذلك بأدواته.

- لابد من التنبيه إلى أن هذه الشريعة أنزلتْ لتسعد الناس في الدارين.

- إن من واجبات الجميع أن يدرك أن أخوة الإسلام، ووحدة صفوف المسلمين المخلصين والحفاظ عليها من أهم الفرائض وأخطرها.

- إن البارئ سبحانه قد شرع للناس تأدية العبادات في كثير من الأمور على درجات تتنوع بين الأفضل والاختيار والجواز، ومن هنا يجب أن نعرف أن طاقات الناس مختلفة وقدراتهم متباينة.

- لابد من معرفة أسباب اختلاف السلف الصالح، ليكون ذلك من بواعث التمسك بآداب الاختلاف.

* * *

الإسلام ورسوله وتعاليمه بلغة العصر

بقلم: **الأستاذ أحمد حسين – المحامي**

لكل عصر لغة خاصة به، وأسلوب ومنهاج يتم تبادل الأفكار من خلاله، وكون أي مجتمع يتعامل بلغة واحدة طوال بضعة قرون لا يغير من هذه الحقيقة، وذلك أن ثبات اللغة من حيث كونها أصواتًا معينة يتلفظ بها، وصورًا معينة يكتب بها، لا يعني بحال أن تظل على حال واحد لا يتغير بتغير الزمن، أن اللغة باعتبارها ظاهرة تتصل بالإنسان الحي، لا يمكن إلا أن تكون كائنا حيًّا تجري عليها نواميس الحياة، وأخص خصائص الحياة التغير الدائم.

وليس أدل على ذلك من أن أي إنسان متعلم في العصر الحديث لا يستطيع أن يفهم أي مقطوعة شعرية كتبت منذ عدة قرون إلا إذا رجع إلى المعجم في كل كلمة تقريبًا وحتى المعجم نفسه قد لا يسعفه، إذا كانت الكلمة تشير لأسماء بعض الأمكنة التي اندثرت، أو أسماء الأعلام، ولا سبيل أمامنا إلا أن نرجع لبعض الشروح القديمة لهذه النصوص لنفهم المراد من كل لفظ فيها.

(بل إن كثيرًا من الكلمات التي نعرفها مثل كلمات قعد أو قام أو قال، أو ضرب أو قتل، تستعمل للتعبير عن معانٍ لا تخطر لنا على بال)، ومن الناحية الأخرى لو تصورنا بعث إنسان يتكلم بالعربية من العصر العباسي أو الأموي في عصرنا الحديث – ما فهم شيئًا من صحفنا العربية التي تتحدث عن التلفزيون والسينما والتليفون والراديو وهيئة الأمم والسكرتير العام، والدبابة والصواريخ؛ بل إنه بدوره لن يفهم بعض الكلمات العربية البحتة من أمثال كلمة الجامعة، والكلية، والسيارة، والقومية والاشتراكية والأمة، مثلما نفهم نحن اليوم من هذه الكلمات.

هذا فيما يتصل بمدلول كل كلمة على حدة، وليس ذلك قاصرًا على اللغة العربية؛ بل إنها ظاهرة عامة في كل اللغات. ومعجم أية لغة يحوي عشرات الألوف من الكلمات الميتة التي لم تعد تستعمل،

وعـشرات الألـوف مـن الكلـمات التـي أصـبحت تستعمل استعمالا جديدًا؛ بل إن لغات عالمية كاللغة اللاتينيـة التـي كانـت اللغـة الرسـمية للإمبراطوريـة الرومانيـة التـي حكمـت حـوض البحـر الأبـيض المتوسط ألف سنة، قد ماتت واندرست وعشرات غيرها من اللغات، وإذا كانت اللغة العربية لا تزال حية مزدهرة، فليس ذلك إلا بفضل القرآن الكريم، الذي حفظ قدرًا كبيرًا من الألفاظ العربية، وحدد معانيها باعتبار أن القرآن كتاب المسلمين المقدس الذي يتوارثونه ويحفظونه ويدرسونه لكل متعلم، ولذلك أبقى على قدر من الفهم المشترك بيننا اليوم وبين المسلمين منذ ا لقرن الأول.

على أن القرآن الكريم إذا كان قد حال دون اندراس اللغة العربية، وحافظ على تراكيب جملها وعديد من ألفاظها، فإن ذلك لم يمنع من دخول عشرات الألوف من الألفاظ التي نتعامل بها في حياتنا اليومية، وهي ليست من العربية، فاللغة العربية اليوم تختلف اختلافًا كبيرًا عن اللغة في القرون الأولى.

منهاج المعرفة

والتغير لا يلحق الألفاظ ومدلولاتها من جيل إلى جيل فحسب؛ بل إن التغير يلحق منهاج المعرفة نفسها من عصر إلى عصر، فإلى ما قبل قرنين في أوربا، وقرن واحد في البلاد الشرقية، كان العلم منتهى العلم أن ينقل الإنسان عمن سبق، وكان بحسب الإنسان أن يقول: حدثني فلان عن فلان في أي موضوع من الموضوعات؛ لكي يكون ذلك علما يقينيًّا لا يتعرض لأي لون من ألوان النقد فضلًا عن التمحيص والإخضاع للتجربة.

وقديمًا اعتبر عمل جامعي الأحاديث النبوية من أمثال البخاري ومسلم وغيرهما ثورة على الأوضاع المتوارثة في القرون السابقة عليهم، عندما حاولوا أن يضعوا بعض المقاييس والمعايير ليفرقوا بها بين الحديث الصحيح والحديث الزائف، وقد كانت السوق مغمورة بمئات الألوف من الأحاديث المدسوسة والمحرفة والمكذوبة، وكلها تنسب إلى رسول الله، دون أن توضع مقاييس لغربلتها وبيان صحة نسبتها إلى الرسول، مادامت تروى له في الصيغة العلمية حدثنا فلان عن فلان. حتى كان البخاري فأقدم على هذا العمل العظيم، وهو محاولة نقد هذا الحشد من الأحاديث وتحديد الصحيح منها من الزائف، ولم تتعد عملية النقد التي قام بها هؤلاء

الأئمة، تحرى السند الذي يُرْوَى الحديث من خلاله، أي سلسلة الرواة الذين تناقلوا الحديث، فهل هم أشخاص حقيقيون عاشوا وعرفهم الناس، وهل كانوا أشخاصًا عدولا لم يشتهر عنهم كذب أو نسيان، ولم يكن في دينهم أو أخلاقهم مطعن، وهل تعاصر هؤلاء الأشخاص فعلًا بحيث لا يستبعد العقل إمكان إلقائهم ونقل بعضهم عن بعض، وهل السند موصول لا ينقطع حتى يصل إلى رسول الله، فإذا استوفيت هذه الشرائط كلها، فالحديث إذن صحيح، ونسبته إلى رسول الله لا يداخلها شك، وأصبح كتاب البخاري أصح كتاب بعد القرآن، وإذا أطلق اسم الصحيح دل ذلك على أن المقصود به كتاب البخاري.

وهذا الذي فعله البخاري قد اعتبر في عصره اجتراء وفتحًا جديدًا وخروجًا وتعسفًا، وأضفى على كتابه بعد وفاته ما يشبه القداسة ثم سايره أئمة آخرون ساروا على نهجه، وصار علم نقد الحديث من جهة الرواية مما تميزت به هذه الأمة؛ لكن ذلك لم يمتد حتى يشمل مثلا موضوع الحديث أو ما يعبرون عنه بمتن الحديث أو يشمل فروع المعرفة الأخرى.

ثم جاء عصر خبا فيه نور المعرفة والعقل والاجتهاد. واكتفى علماء هذا العصر بالنقل – نقل كل ما جاء في الكتب القديمة دون نقد أو تمحيص، كان أي كتاب قديم باللغة العربية في التأريخ أوالأدب أو النحو أو الفقه أو التفسير قد أصبح بدوره لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، حتى لو كان هذا الكتاب هو الأغاني بكل ما فيه من فحش ومهاترة ووصف لمجتمع لا يفيق من الخمر والزنا واللواط.

وحتى لو كان ما يقال ويروى لا يقبله العقل وتتقزز منه النفس، ولا ينبغي أن نلوم القدماء كثيرًا على تصديقهم لكل شيء وعدم إنكارهم شيئًا، فقد كان العالم أمامهم يغص بالعجائب والغرائب، وكانوا لا يستبعدون شيئًا على قدرة الله، وكان منتهى ما يقوله أحد المؤرخين أو الكتاب إذا ما نقلت إليه رواية لا يصدقها عقله هو، أن يثبتها مع ذلك ثم يردفها بقوله: «والله أعلم». وكان العالم منهم يهدد طلبته بغضب الله «وعدم الفتوح عليه» إن هو اجترأ على نقد شيء مما جاء في الكتاب..

صدمة المفكرين المحدثين من المسلمين

ومن هنا كانت صدمة المفكرين من المسلمين

في العصر الحديث عصر البخار والكهرباء والآلات الحديثة، وبعد أن فقد المسلمون استقلالهم، وتغشى المستعمر الأجنبي أرضهم. وما استتبع ذلك من شعور بالهزيمة، وفقدان الثقة بالنفس، عندما أتيح لبعضهم السفر إلى أوربا، فرأوا فيها من مظاهر التمدن والعمران، ما جعلهم يشعرون بمرارة التخلف، ويبحثون عن أسباب ما يرون من تقدم، فوجدوه في العلم الأوربي الجديد، ومنهاج المعرفة الذي لا يقوم على النقل، بقدر ما يقوم على التجربة، ورد كل شيء إلى العقل، وتمحيص كل القضايا، ورفض أية قضية لا يقوم عليها دليل أو برهان، حتى أصبح الطريق العادي لأي طالب في أية مدرسة، لا أن يحفظ عن ظهر قلب مُسَلِّمات؛ بل أن يفهم ويدرك ويعي، فالحساب والجبر والهندسة، أصبحت مسائل عقلية، يقام عليها الدليل والبرهان، والطبيعة والكيمياء أصبحت من المسائل التي يشتغل فيها كل طالب ويجري التجارب بنفسه، حتى يقتنع، فليس يكفي أن يقال له: إن الماء إذا تجمد تمدد وزاد حجمه؛ بل يجب أن يعطى كل طالب أنبوبة مليئة بالماء، ثم يراها كيف تنفجر إذا برد الماء وتجمد نتيجة للتمدد.

حتى العلوم النظرية كالقانون والآداب، أصبحت عندهم تعتمد على العقل والمنطق، فليس يكفي أن يروى التأريخ رواية، بل يجب أن تساق – على ما يروى – الشواهد من آثار تأريخية، والجغرافيا أصبحت كلها قضايا لابد من إثباتها، فكروية الأرض لابد من إقامة الدليل عليها وكذلك دورانها، وعمر الأرض لم يعد يكفي فيه أن يقال: إن التوارة تقدرها بأربعة آلاف سنة، فقد أثبتت الجغرافيا الأثرية أن قدماء المصريين عاشوا ضعف ذلك القدر من السنين على الأرض وهكذا.

ومن هنا عاد طليعة مفكرينا من أوربا، وهم يحملون المعاول لهدم كل قديم فلا يكاد يذكر أمامهم التراث العربي حتى يسخروا منه، ولايكاد يذكر أمامهم اسم بعض الكتب القديمة حتى ينعتوها بالصفراء، ثم يطالبوا بحرقها، حتى الدين نفسه راحوا يهزون أكتافهم ويلوون كشحهم عنه، ووصل بعضهم إلى حد الكتابة والإشهار، فراحوا يشككون ويغضون من شأن كل مقدساتنا.

واعتبر الجيل الجديد من الشباب الذي بدأ يرتوي من قشور العلم الجديد، هذا النفر من الكتاب هم أئمة الفكر وقادة النهضة، ودوت

أسماؤهم كمجددين مصلحين ثائرين على القديم، واشتهر من هؤلاء العائدين من أوربا في الجيل الذي سبق علينا منصور فهمي، وحسين هيكل، وطه حسين، ولحق بهم كاتب عملاق آخر، وإن لم يسافر إلى أوربا ويتعلم بها، فقد انتقلت أوربا إليه من خلال كتبها، هو عباس محمود العقاد.

انقلاب

ثم فوجئ المجتمع الإسلامي بهذا النفر يتحول بالتدريج إلى أكبر داعية للتراث القديم، والدين بصفة خاصة، وتحول رجل كالدكتور منصور فهمي – في أخريات حياته – إلى صوفي درويش لا يطيق سماع كلمة الثقافة أو العقل فضلًا عن الحضارة الغربية التي كان مفتونًا بها.

أما حسين هيكل فقد بعث الحياة من جديد في السيرة النبوية واستضاء بكتابيه «حياة محمد» وفي «منزل الوحي»مئات الألوف من أبناء الجيل الجديد، وتلاه طه حسين، فإذا به يكتب على هامش السيرة أعظم ما كتب، وجاء عباس محمود العقاد في خاتمة المطاف بعبقرياته، فاكتسح بها سوق المعرفة الإسلامية.

ما السر في ذلك؟

ما السر في هذاالتطور الذي يشبه أن يكون قاعدة وناموسًا، وما الذي يجعل المفكرين المسلمين في العصر الحديث يبدؤون بالثورة والتمرد على التراث والدين، ثم ينقلبون متحمسين لهذا التراث مدافعين عنه؟

السر عندنا أنهم ثاروا على الأسلوب القديم والمنهاج القديم واللغة القديمة التي كانت تفرض عليهم أن يطفئوا نور عقولهم، وأن يسمعوا لكل ما ينقل إليهم مع أن القرآن دعوة مستمرة متصلة تحرض على استخدام العقل واستعماله في كل شيء «أفلا يعقلون – أفلا يتفكرون – أفلا يتدبرون» فلما أن طلب من المفكرين ألا يفكروا ثاروا وتمردوا، وحق لهم ذلك، فقد ظنوا أن التراث القديم والدين والإسلام يقوم على إطفاء نور العقل فأنكروه.

وشاءت الظروف أن تقع في أيدي هؤلاء بالذات ما كتبه ويكتبه المستشرقون من علماء أوربا عن التراث العربي والإسلامي وعن نبي ا لمسلمين، فوجدوا فيما يقوله المستشرقون في بعض الأحيان تقديرًا بهذا التراث وتمجيدًا له، وإشادة بمواقف النبي الكريم، كما وجدوا في بعض المواطن الأخرى ذمًّا وقدحًا وإنكارًا.. فراح أصحابنا إلى المراجع التي رجع إليها المستشرقون، وطبقوا قواعد التمحيص والنقد

المتفق عليها، على هذه المراجع، فخرجوا من بحثهم بالإعجاب المضاعف لما أعجب به المستشرقون، كما اكتشفوا التجني والانحراف في المواضع التي كانت محل قدح المستشرقين أو إنكارهم.

اكتشاف

ومن هنا بدأ اهتمام مفكرينا الأعلام بالتراث العربي والدين الإسلامي، وسرعان ما اكتشفوا أنهم كانوا ظالمين عندما أنكروا هذا التراث جملة، وعندما غضوا من تعاليم الدين ومبادئه، فقد وجدوا أنفسهم يبشرون بمدارس في النقد والأدب، وفهم تعاليم الدين قد سبقوا إليها من بضعة قرون، ووجدوا أنه من السهل تمييز الغث من السمين في أدبنا العربي وتأريخنا وتراثنا، وأن التراث العربي والإسلامي والديني يخضع لأقسى أساليب النقد وقواعد التمحيص العلمي، وأن قدرا كبيرًا منه ظل قائمًا كحقيقة علمية تتحدى أكثر المكابرين تعنتًا بثبوتها وحقيقتها.

وهكذا انقلب هؤلاء الدعاة للتجديد، وإنكار القديم، إلى أشد الناس حماسة لهذا القديم، وتعلقًا به، وحرصًا على نشر صفحاته المطوية. وقد تم هذا الانقلاب عندما تعلموا أن يطالعوا التراث ا لقديم، والإسلام وتعاليمه، بلغة العصر وأسلوبه ومنهاجه.

والحق أنه ليس أضر على الإسلام وتعاليمه وقرآنه – في وقت أصبح الراديو والتلفزيون والصحافة والكتب، لا تتحدث فيه إلا عن حتمية التأريخ، والمادية الجدلية، وقوانين الطبيعة، والصراع الطبقي، والاشتراكية والشيوعية، يعزز ذلك ويقويه سفن كشف الفضاء في طريقها إلى القمر والكواكب الأخرى – ليس أضر على الإسلام وتعاليمه من أن يظل المتحدثون باسم الدين أوالشارحون لتعاليمه، أو الذين يتصدون لمقاومة الإلحاد أن يكون كل دليلهم على ما يقولون أن فلانًا قد قال، وأن فلانًا قد روى عن فلان، وأن يحظروا على العقل أن يفكر، أوأن يفرض، أو أن يقارن، أو أن يتساءل في تشكك في كل الأحوال.

يجب على كل من يتصدى للكتابة عن الإسلام اليوم – وخاصة للجيل الجديد – ألا يتصور أن كلامه سيؤخذ كقضية مسلم بها لمجرد أنه يقول، ويجب أن يفرض دائمًا أن في العقول شكوكًا، وشغفًا للاطمئنان إلى هذا الذي يقال لهم، فيجتهد أن يسوقه بقدر الإمكان بلغة العصر ومفاهيمه، ومنهاجه في التدليل والقياس والبرهان.

القرآن الكريم: منهج الهداية وسبيل النهضة

بقلم: محمد فائز جميل المباركفوري(*)

القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على النبي محمد ﷺ، وهو هداية لكل البشرية، وسبيل للخير والصلاح، ونور يهدي في ظلمات الطغيان والعصيان.

والقرآن الكريم يشكل ضمانًا قويًا للنهوض بالجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية في جميع مجالات الحياة، وملاذًا يمنح القلوب الراحة والطمأنينة من ضغوط الحياة وهمومها. كل آية فيه تحمل رسالة للقارئ، وتدعوه إلى التأمل والتدبر والتفكر. فالقرآن الكريم مصدر حكمة وهداية، ومن يتدبره بعناية ويستوعب معانيه ومفاهيمه ينال ثباتًا فكريًا وفهمًا عميقًا. والقرآن الكريم وحي رباني يزين الفكر والعمل، ويعلّم العدالة والإنصاف، ويشعل النور الحقيقي في ظلمات الظلم والجهل، ليكون دليلًا ونبراسًا للأمة الإسلامية في حياتها كلها.

تعريفُ القرآنِ وغايةُ نزولِه:

لقد عرَّف القرآنُ الكريمُ بنفسِه في مواضعَ شتّى، مبيِّنًا دلائلَ القدرةِ الإلهية، وصفاتِ الكمالِ والأزليّة، بآياتٍ تسكنُ لها القلوبُ، وتنشرحُ بها الصدورُ. موضحًا مكانة النبيّ الأعظم، سيِّد الورى وخير الخلقِ، محمَّد بن عبدِ الله- ﷺ- الذي أضاءتْ بمولدِه الأكوانُ، وحييتْ بسيرتِه الأرواحُ، فكان منارًا للإنسانيةِ، ودليلَ عظمةِ البشريّةِ، ورحمةً للعالمين.

وقد كشف القرآنُ الكريمُ الستارَ عن حقيقةِ الدارين، مؤكِّدًا أبديّةَ الآخرةِ، وزوالَ الدنيا ومحدوديّةَ متاعِها، وفصَلَ القولَ بين الحقِّ المبين والباطلِ الزاهقِ؛ ليغرسَ في القلوبِ إدراكَ عظمةِ القرآنِ ومكانتِه كما قال الله تبارك وتعالى في كلامه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان:١) وقال في موضع: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سورة إبراهيم:١).

موضوع القرآن الكريم ومحوره الأساسي:

إن القرآن الكريم جعل الإنسان محور هدايته، وقصد به إرشاده إلى الصراط المستقيم. وهو يعالج شؤون الحياة ومشكلاتها بحكمة وتوازن، ويقي الإنسان من التشتت والضلال والسلوك المنحرف،

(*) طالب الماجستير في قسم اللغة العربية بجامعة عليكراه الإسلامية.

ويوجهه إلى طريق الرشاد والحق القويم. و يحثه على قبول النصيحة والاعتبار بقصص الأنبياء عليهم السلام، والسير في سبيل الهداية والحق المبين الذي ينير القلوب ويهدي إلى سواء السبيل، وقد تضمن القرآن آيات كثيرة في هذا الشأن.

القرآن الكريم ودعوته إلى التدبر والتفكر:

لقد دعا القرآن الكريم في مواضع متعددة إلى التدبر والتفكر في قدرات الله تعالى، وفي خلق الإنسان والكون وما فيه من مخلوقات وآيات. كما تطرق إلى أسباب ازدهار الأمم السابقة وانحطاطها، ليقرأ الإنسان هذه الدروس، ويفهمها، ويتعظ بها، وينال النجاح والفوز في الدنيا والآخرة.كما قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (سورة ص:٢٩) وفي موضع آخر قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة:٢١٩) كما ذكر في سورة يونس: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الآية:٢٤).

فالقرآن الكريم لا يهدف إلى أن يتعطر اللسان بالقراءة فقط؛ بل يريد أن يتنور القلب، وتتجلى البصيرة، وتسير الأفكار نحو الطريق القويم. فالإنسان مأمور بأن يتفكر في نفسه: من نحن؟ ولماذا خلقنا؟ وما منزلنا من هذا الكون؟ وما الطريق الذي يجب أن نسلكه؟ لذلك، يجدر بنا أن نتلو القرآن بقلوب واعية، ليستيقظ ضميرنا، ونعرف خالقنا الواحد الأحد، لا شريك له ولا نظير، ولنسعَ لبناء مجتمع فاضل راقٍ، قائم على الفضيلة والهداية.

التحذير من عدم التفكر في القرآن:

فمن جانب، يحثُّ الله تعالى الأمّة على التدبر والتفكر في كتابه الكريم، واستشراف المعاني الخفيّة وفهم مقاصدها والتأمل العميق فيها. ومن جانب آخر، يحذر الله تعالى في كتابه من الغفلة عن القيام بهذا العمل، إذ إنَّ تلاوة القرآن الكريم بلا فهم ولا إدراك، والاعتياد عليها مجرد عادة، والابتعاد عن الإمعان في معانيه، أمرٌ فيه تقصير لا يُساغ له. ولا شكَّ أن قراءة الآيات القرآنية مرارًا وتكرارًا لا تخلو من الثواب والبركة، لكن الاكتفاء بها والاكتفاء بالقراءة وحدها لا يبعث اللذة الروحية ولا الاطمئنان القلبي كما قال الله عزوجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (سورة محمد:٢٤).

وقال أيضًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء:٨٢).

و قال في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ (الآية:٣٠).

ولو كان القوم من غير المؤمنين كما يدل عليه السياق، فإن المسلمين ينبغي لهم أن يخافوا أن يقعوا

في مثل هذا الإهمال؛ إهمال القرآن الكريم وتعاليمه، وتركه عرضة للنسيان، فإن ذلك يحرمهم شفاعةَ النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

ويشير حكيم الأمة أشرف علي التهانوي في تفسير هذه الآية إلى «أن العباد المذكورين في الآية لم يكونوا هكذا؛ بل كانوا يهرعون إلى القرآن الكريم، متوجهين إليه بعقل وفهم دقيق، مما زاد إيمانهم بالله، وعمّق عملهم بأحكامه في حياتهم».

فعباد الله الصالحون لا يقرؤون القرآن قراءةً عمياء، ولا يستمعون إليه استماعًا سطحيًا؛ بل يجمعون بين فهم القرآن بعقلهم وإدراكهم، وبين التفاعل الروحي مع معانيه.

صلة الأمة بالقرآن الكريم:

إن المشاهدة اليوم تدل على أن الأمة الإسلامية اليوم تمر بزمن أعرض فيه كثيرٌ من أفرادها عن القرآن الكريم، إذ إنَّ علاقتهم بكتاب الله يشوبُها الإهمالُ والجفاء، و لأنها اعتبرته كتاب قراءة وتلاوة بمناسبة الوفاة أو في الأشهر الخاصة ولم تعدَّه كتاب تدبر وعمل، وهذا من التقصير البين.

وإنَّ الأمة اليوم في زمن كثرت فيه البدع، وتلاطمت فيه الفتن، وتحكمت فيه الشهوات، وتغيرت فيه المبادئ والمعتقدات؛ لهي أحوج ما تكون إلى الرجوع إلى كتاب ربها جلَّ في عُلاه. وإنه لا خَلاص من هذا المستنقع الآسن الذي تعيش فيه الأمة على جميع الأصعدة؛ إلا بأن يتجه أفرادها جميعًا، شعوبًا ودولًا، رجالًا ونساءً، علماء وعامة، اتجاهًا صحيحًا بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم، بقلوبهم وقوالبهم، إلى كتاب الله علمًا وعملًا. وذلك لأن الرفعة إنما هي لحملة القرآن العاملين به؛ كما صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(الصحيح لمسلم).

فالقرآن معتصَم هذه الأمة في جميع أحوالها، وهي بحاجة ماسة إلى فهمه والعمل به، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «حاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن (مقدمة أصول التفسير، ص:٣٣).

ضرورة فهم القرآن والعمل به:

ويتضح ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: القرآن كتاب الله، فيه هداية لمن أراد السير على الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة المائدة:١٥-١٦).

ثانيًا: أنَّ القرآن كتابُ حكمٍ وتشريع، يشملُ جميع شؤون الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ (سورة المائدة:٤٨).

ثالثًا: أنَّ هذا القرآن كتاب عقيدةٍ خالصة صافية، فيه البيان الحق لكلِ ما وراء الغيب؛ مما

يتعلــق بــالله تعــالى وأســمائه وصــفاته وربوبيتــه وألوهيتـه، ومـا يتعلـق بخلقـه للسماوات والأرض والإنـسان ونـشأته، ومـا يتعلـقُ بـالإيمان بالملائكـة والكتب والرسل واليوم الآخر، وما يتعلق بما يضاد ذلك من الكفر والشرك والنفاق، ودلائل الربوبية والألوهية والنبوات، وإعجاز هذا القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (سورة الزخرف:٤٣-٤٤).

رابعًـا: أن القـرآن حبـل الله المتين في مواجهـة أعـداء الإسـلام المتربـصين بأمـة الإسـلام، الـذين لا يـدعون وسيلةً في حربها إلا سلكوها، فهذا القرآن يعلـمُ الأمـة حقيقـة المعركـة مـع عـدوها، ويبـينُ لها أهدافها الحقيقية من جانب أعدائها، كما قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾(سورة النحل:١٢٥).

تـدلّ هـذه النقـاط عـلى أن فهـم القـرآن الكـريم والعمـل بـه ضرورة حتميـة لإصـلاح الفـرد وبنـاء المجتمـع ونهـضة الأمـة؛ لأنـه كتـاب هدايـة وتـشريع وعقيدة، وهو حصن الأمة في مواجهة التحديات.

تأثير القرآن في نهضة الأمة:

في هـذا العـصر الـراهن، حُرمـت الأمـة تـأثيرَ القرآن الكـريم، وأصـبحت تتدهور يومًـا بعـد يـوم. وفي الحقيقة، إن تقدم الأمة وارتقائها مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعلاقتها بالقرآن الكريم. لو كانت الأمة ترتبط بالقرآن وتعاليمه بصدق قلوبها، وإخلاص نفوسها، وعمل أيديها، وبكل ما فيها من شعور وفكر وجنان وجوارح، لفتح الله لها أبواب الازدهار والتقدم. أما إذا عزلت الأمة القرآن عن حياتها، فإنه يسقط بها في قعر الذلة والهوان.

إن القــرآن الكــريم يحمــل حلــول جميــع المشكلات، ويَعرِضُها للأمة بأسلوب لم يأتِ به أي كتاب آخر، إلا أن الأمة -للأسف- قد تهاونت في الرجوع إليه لحل مشكلاتها حتى العلماء قد غفلوا عن القرآن، وهو أمر مؤلم ومُحزن، فالقرآن يدعونا جميعًا إلى العودة إلى هذا النور و الهداية، والاستفادة من كنوزه الخالدة قبل فوات الأوان.

فإذا أرادت الأمـة أن تمتلئ حياتها بـالنور وأن تنهض حضارتها ومجتمعها من الحضيض إلى آفاق العُلى، فلا بد لها من إعادة صلة حية وواعية بينها وبين القرآن الكريم. حين تفتح الأمة صفحات القرآن بقلوب واعية، وتجعل من مبادئه نبراس خطواتهـا، تولـد يومهـا ولادة جديـدة للـوعي، وتستعيد كرامتها التي غابت عنها. فقد لاحظت الأمة عبر التأريخ سقوط نفسها حين ابتعدت عن منهج القرآن، وعرفت أن الحل يكمن في تقوية صلتها به. واليوم، بالتمسّك بهذا المنهل، تستطيع الأمـة أن تحـول ظـلام الفـشل والهزيمـة إلى فجـر مشرق، وتجعل القرآن رفيقها في كل دروبها، ليعود إلى حياتها معنى، وإلى مستقبلها نور، وإلى هويتها صدىً متجدّدًا.

* * *

ليلتان في إمارة إسلامية هندية سابقة

بقلم: **التحــرير**

في يـوم مـن أيـام شـهر صـفر عـام ١٤٤٧هـ/ أغسطس عام ٢٠٢٥م اتصل بي الأخ الفاضل /سيد أمجد عـلي القاسـمي[١]- أحـد المدرسـين في مدرسـة خير المـدارس بمدينـة «حيـدر آبـاد» العريقـة - إمـارة إسلامية سابقة لعبت دورًا ملموسًا في خدمة العلوم الإسـلامية دراسـةً وتحقيقًـا و طباعـةً-، وأبـدى رغبـة مؤسس ومدير المدرسة فضيلة المفتي محمد أحمد علي القاسـمي[٢] أن يـزور كاتـب هـذه السـطور مدرسـته ويختبر طلابها بمناسبة الاختبارات النصف السنوية، ويقيِّم أوراق الإجابة، ويرشدهم إلى الطرق الحديثة لتعلـيم اللغـة العربيـة، واتفقنـا عـلى أن تكـون هـذه الرحلـة خـلال الأيـام التـي تتعلـق فيهـا الدراسـة اسـتعدادًا للاختبـار النـصف الـسنوي في الجامعـة وبالتحديد اعتبارًا من السادس عشر من شهر ربيع الأول إلى السابع عشر منه، وأرسلوا خطابًا إلى قسم شؤون التعليم للموافقة على هذه الرحلة خلال هذه الأيـام، وبعـد موافقـة القـسم عـلى ذلـك حجـزوا لي تذكرة ذهابًا وإيابًا من «دلهي» إلى «حيدر آباد».

وفي اليـوم الموعـود خرجـت بـسيارة أجـرة في نحـو الـساعة الثامنـة والربـع لـيلا مـن مقـري في الجامعة، وبلغنا مشارف مدينة «مظفر نغر» والساعة تدق التاسعة تمامًا، وقد دخل وقت الصلاة الأخيرة، فعرجنـا عـلى بعـض المـساجد في ضـواحيها، ودخلنـا المـسجد وقـد سـبق الإمـام بالـصلاة للنـاس، فـصلينا فـرادى، وعـدنا إلى الـسيارة، ثـم سرنـا سـيرًا هادئـا مطمئنـا، وتمـددت في المقعـد الخلفـي مـن الـسيارة، وأخـذني النـوم العميـق، فلـم أنتبـه إلا وقـد دخلـت السيارة مدينة «دهلي»، فقمت أمسح النوم من عيني، وأسـأل الـسائق: أيـن وصـلنا؟ فقـال: دخلنـا مدينـة «دلهي»، والساعة تدق الحادية عشرة ليلًا، والطرق مزدحمـة حتـى في هـذا الوقـت المتـأخر مـن الليـل، فسارت السيارة في قلب مدينة «دلهي» تشق طريقها إلى صالة المغادرة رقم ٣ من المطار الدولي، و وقفت السيارة في نحو الساعة الثانية عشرة ليلًا على أحد مـداخل الـصالة رقـم ٣، ونزلـت وأخـذت العفـش، وتوجهت إلى أحد المداخل قليل الزحام أو عديمه، فردني رجل الأمن بحجة أن هذا المدخل يخص حملة (DigiYatra)، فرجعت القهقرى إلى مدخل آخر فيه

بعض الزحمة، فوقفت في طابور طويل أطول من ظل الرمح، وأشبه بظل الشيطان، حتى جاء دوري، فتأكد رجل الأمن من التذكرة والهوية في ثوانٍ معدودات، وسمح لي بالدخول إلى الصالة، وتوجهت على التو إلى البوابة رقم (٦٧) -إذا لم تخني الذاكرة-، بعد أن قضيت بعض الوقت في «مصلى المطار»، حتى أعلن المذيع بدء الدخول إلى الطائرة في الساعة (١:٣٠) صباحًا، فتوجهت إلى البوابة فيمن توجه من ركاب منطقة (C)، وتبوأت مقعدي رقم (A٢١)، ولم نلبث أن تحركت الطائرة للإقلاع من مطار «دلهي» الدولي، في الساعة الثانية والنصف صباحًا، فسارت طويلا على المدرج، ثم أقلعت وحلقت في جو السماء، وهو مظلم لايكاد يرى الرجل يده إذا أخرجها، ثم قدموا لنا فطورًا خفيفًا، وما إن تناولناه حتى غط كثير من الركاب في نوم عميق، ولم ننتبه إلا والساعة تدق الخامسة والنصف، والمذيع يعلن قرب موعد هبوط الطائرة على مطار «حيدر آباد» الدولي.

ونزلت من الطائرة وتوجهت إلى المخرج من المطار، فما إن تجاوزت المخرج حتى استقبلني صاحب الفضيلة المفتي محمد أحمد علي -حفظه الله- مؤسس المدرسة ومديرها-برفقة إخوة كرام- المفتي سيد أمجد علي القاسمي، والمفتي بختيار القاسمي[٣]، والمفتي إصلاح الدين تميم القاسمي[٤]-، فكان التسليم، وكانت المصافحة والمعانقة بحرارة بالغة، والاستمزاج والاطمئنان إلى مراحل السفر الطويل، ثم ركبنا السيارات بعدُ، وتوجهنا إلى مقر مدرسة خير المدارس- وهي كاسمها من خير المدارس في المنطقة-، على بعد كيلو مترات تعد على أصابع يدين اثنتين، ودخلنا المدرسة والطلاب يسوون صفوفهم لصلاة الفجر، فألقينا الأغراض في دار الضيافة بجوار المسجد الجميل الرائع، وهرعنا إليه لنؤدي الفجر جماعة مع القوم، فأمهم طالب من طلاب المدرسة يقرأ القرآن غضًّا طريًّا كما أنزل، فشنف المسامع بتلاوته العطرة التي استهوت القلوب، ولما قضى الصلاة عدنا إلى المضيف، والطلاب عاكفون على تلاوة القرآن الكريم و التسبيح والتحميد وغيرها من الأعمال الصالحة حسب برنامج وضعته لهم المدرسة.

جلسنا برهةً في المضيف الذي يتوفر فيه من أسباب الراحة الشيء الكثير، وتناولنا فطورًا خفيفًا بما فيه بعض المكسرات والفواكه اللذيذة والأطعمة المحلية، كما تناولنا في الوجبات اللاحقة «حيدرآبادي برياني»- وهو طعام لذيذ يُصنع من الرز واللحم والبهارات الخاصة، و يشتهر في طول البلاد وعرضها-، ثم لجأت إلى الفراش لآخذ قسطًا من الراحة و الاستجمام، وأسري عن النفس عناء الرحلة الطويلة الممتدة من الساعة السابعة مساءً إلى نحو الساعة السادسة صباحًا، وقد غلبني النوم

فلاتكاد عيني تطرف، فما إن أويت إلى الفراش حتى غططت في نوم عميق، امتد نحو ساعتين فصاعدًا، والجو معتدل في «حيدر آباد»، وليله ونهاره سواء، والليل ليل تهامة لا بارد ولا حار. فقدموا فطورًا آخر أثقل بعض الشيء من الفطور الأول، وتناولنا الشاي مع صفوة من أساتذة المدرسة ورئيسها ومؤسسها الشيخ محمد أحمد علي القاسمي.

ثم وكلوا إلي اختبار بعض الطلاب في الصفوف العربية، واختبرتهم في مادة اللغة العربية، فوجدت – ماشاء الله- جهودًا مضنيةً من الطلاب في فهم المادة واستيعابها، وتحدث كثير منهم باللغة العربية حول بعض الموضوعات التي طرحتها عليهم حسب مستواهم الدراسي. وألفيت عنايةً فائقةً من الأساتذة ومدير المدرسة بتعليم اللغة العربية كلغة حية تنطق وتمارس في مجالات الحياة المختلفة. واستمر الاختبار حتى نحو الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ثم تناولنا الغداء، وأوينا إلى الراحة والقيلولة بعض الوقت حتى نادى المنادي لصلاة الظهر.

صلينا الظهر في مسجد المدرسة جماعةً، ثم كلفوني أن ألقي كلمة على الطلاب أحثهم على الدراسة وبذل ما يمكن بذله من الجهود والمساعي، فإن العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. فتحدثت إليهم عن أهمية الدراسة وحاجتها إلى الانصراف الكلي عما سواه، والتركيز الشديد على المراجعة والمذاكرة، وكيف أن سلفنا الصالح رحمهم الله قرحوا مآقيهم وجاثوا خلال البوادي والقفار، وقطعوا الصحراء القاحلة والخراب اليباب والمفاوز -التي يتلون فيها الخريت من خوف التوى كما يتلون الحرباء- في سبيل العلم، لايذوقون النوم إلا غرارًا، ويأكلون الجشب، ويلبسون الخشن من الثياب، ويقهرون النفس على المكاره، ويستظلون الزرقاء، ويفترشون الغبراء.

وذكرت لهم قصة ثعلب النحوي الفقيه الإمام الذي مات بعد أن خرج من الجامع بعد العصر، وفي يده كتاب يقرأ فيه في طريقه إلى البيت، فصدمه فرس، فسقط في هوة بجانب الطريق، فأخرجوه وحملوه إلى بيته فمات من غده، وكيف أن ابن أبي حاتم رحمه الله ورفقته سافروا إلى «مصر»، وذات يوم اشتروا سمكة ليطبخوها في الرحل، فلم يجدوا فرصة لزحمة الدروس لطبخها وتناولها حتى مرت عليها ثلاثة أيام وخافوا أن تنتن، فأكلوها نيئةً؟ وكيف أن محمد بن سحنون الإمام العالم المالكي رحمه الله – صاحب المدونة في الفقه المالكي- ألقمته جاريته ذات ليل العَشاء وهو مكب على التصنيف والتدوين، وهو لايشعر حتى أصبح، ونادى المؤذن لصلاة الصبح، فانتبه ودعا جاريته يطلب منها العَشاء، فقالت: قد ألقمتك وأنت مكب

على التصنيف ولاتشعر،.... وقصصًا أخرى.

وصلينا العصر في مسجد المدرسة، وضربوا لي موعدًا مع طلاب الصف السابع العربي، فحضروا إلى المضيف، فكان حوار ودي ونصح وإرشاد، وإجابة عن سيل من الأسئلة وجهها الطلاب إلي، منها ما يخص الدراسة والتعمق فيها، ومنها ما يتعلق باختبارات القبول في الجامعة الإسلامية: دارالعلوم /ديوبند، والاستعداد له حتى يوفقوا للترشيح للدراسة فيها.

وأدينا المغرب في مسجد المدرسة، وكانوا ضربوا لي موعدًا آخر مع أساتذة مادة اللغة العربية، فاجتمعنا في قاعة من قاعات المدرسة، نتبادل التجارب والخبرات في تعليم اللغة العربية كلغة حية تستخدم في مجالات الحياة. وشرحت لهم مختلف طرق تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، التي تتبناها مختلف المعاهد اللغوية في العالم العربي وغيره، وما هو الطريق الأمثل الذي يمكِّن الطالب من استخدام اللغة العربية خطابةً وكتابةً وتحدثًا ونطقًا، حتى يعزز مكانته في اللغة العربية، وألقيت على مسامعهم بعض اللقطات الصوتية التي تشكل نماذج في تعليم الأصوات العربية واللهجة العربية الأصيلة، وطرق تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها. فكانت الجلسة جلسة تبادل الخبرات أكثر من إلقاء درسٍ، وهل كان لي أن ألقي درسًا على هؤلاء الأساتذة المحنكين العقلاء، الذين حلب معظمهم الدهر أشطره، وسبر حلو الدهر ومره، واختبر حزنه وسهله، و وقف على عجره وبجره، وتبين غثه وسمينه، ومحاسنه ومساوئه، وعرف ما له وما عليه، وعركته رحا الأيام؟

وهكذا انتهى اليوم وجزء من الليل في جلسات وحوارات ودية علمية وأدبية وتبادل تجارب تدريسية ودراسية في المدرسة، ثم تناولنا العشاء في وقت متأخر من الليل، ثم أوى كل منا إلى مضجعه، يقول: اللّٰهم، أسلمت نفسي إليك، و وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك؛ رغبة و رهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت».

وكان تقرر أن أزور بعض الجهات العلمية والمكتبية في مدينة «حيدر آباد»، فصلينا الفجر في مسجد المدرسة، وتناولنا الفطور مع مدير المدرسة، وبعض الأساتذة وحفنة من الضيوف في المضيف، لنستعد للزيارة، فخرجت أنا وكل من المفتي سيد أمجد علي القاسمي، ومولانا سيد عبد المنان القاسمي[٥]، والمفتي بختيار القاسمي، والمفتي إصلاح الدين القاسمي، فمررنا بشوارع المدينة العريضة والضيقة، ولم نلق كثيرًا من الزحام بحكم الوقت المبكر من الصباح، و دخلنا مقر دائرة

المعارف العثمانية - وهي وجهتنا- في منطقة خضراء نظيفة الطرق والممرات، فاستقبلنا أولًا على البوابة رجال أمروا أن نسجل أسماءنا في سجل الزوار، فتولى أحدنا ذلك، ثم ولجنا في قاعة واسعة الأرجاء مترامية الأطراف، فاستقبلنا جمع من الباحثين والعاملين فيها بحفاوة بالغة، وهم مولانا عظمت الله الندوي - باحث شاب عكوف على الدراسة والبحث في الدائرة-، وكذلك كل من الأساتذة: محمد أمين نظامي- خريج الجامعة النظامية / حيدرآباد، وموظف شاب نشيط في الدائرة-، ومحمد شرف الدين، ومحمد شمس الدين، وسيد محمد زكريا الغوري الندوي المظاهري، وآخرون لا أذكرهم الآن، ولايضرهم ألا أذكرهم، فالله بهم عليم. وبعد أن تناولنا الشاي تجولوا بنا في مختلف أقسام الدائرة، فشاهدت كثيرًا من مطبوعاتها قديمًا وحديثًا، فإن من شروط الطباعة في الدائرة لطباعة الكتاب أن يكون العمل لم يشهد النور، والحق يقال و دون مغالاة: إن الدائرة لعبت دورًا يشكر ولايجحد، ولايتنكر في نشر الكتب الإسلامية في مختلف المجالات محققة مزينة في حلل قشيبة في حين كادت حركة طباعة الكتب الإسلامية تتلاشى وتتوقف، فجزى الله تعالى القائمين على هذه الإمارة الإسلامية سابقًا وعلى هذه الدائرة الميمونة التي أتى عليها حين من الدهر كان يشتغل فيها كبار العلماء والمحققين أمثال الأستاذ العلامة أبو الوفاء الأفغاني، فإنهم ركزوا عناياتهم على هذا الجانب الهام الحيوي، وسدوا ثلمة كادت لاتسد، لولا أن وفقهم الله تعالى لذلك، كما مررنا في بعض الأجنحة على ماكينة طباعة الكتب القديمة التي استوردوها من دولة أجنبية، وهي غالية الثمن ومكلفة في تلك الأيام، وتحتفظ بها الدائرة لتنطق بخدماتها، وهي باكية ونادبة على العهد الذي مر بها .. العهد الذهبي الميمون، الذي استبحر فيه العمران، وارتقت الإمارة في جميع مرافقها، وازدهرت العلوم والفنون والآداب:

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدان

والحق أن الأستاذ/ عظمت الله وإخوانه لم يقصروا في تعريف الدائرة والخدمات التي قامت وتقوم بها، وفي الحفاوة اللائقة وفوق ما نستحق ونتصور، في هذه الدائرة التي قمت بزيارتها أول مرة في الحياة، وإن بلغني خدماتها وصيتها قبل أن أدخل رحابها، فأحببتها وأثنيت على أعمالها المجيدة. اللّٰهم تقبلها قبولًا حسنًا واجعلها في ميزان حسنات أصحابها العباقرة يوم لاينفع مال ولابنون.

وذكر لي الأستاذ عظمت الله الندوي قصة طريفة، تقول: ذات يوم رغبت دائرة المعارف العثمانية في استقدام شيخ الحديث محمد زكريا - رحمه الله- للعمل لديها على بعض كتب الحديث

والرجال والأنساب ونحوها. وكان الشيخ تراكمت عليه الديون بعد وفاة أبيه، ولايعرف كيف يؤدي هذه الديون؟ فعرضت الدائرة عليه عرضًا سخيًّا، يتضمن تسهيلات السكن والسيارة و راتبًا مغريًا يكفي لأداء ديونه وقضاء حياته على وجه أحسن. ولكن رد الشيخ رحمه الله هذا العرض قائلًا: لا أكاد أفارق جامعة مظاهر علوم/سهارن فور. فلم يسِل لعابه إليه، وتركه لله تعالى، فأبدله الله تعالى بديلًا أحسن، وهيأ له من الأسباب ما أدى عنه دينه، واستمر في العمل في جامعة مظاهر علوم/سهارن فور.

ثم ودعنا هؤلاء الشباب، وخرج بنا الأستاذ /عظمت الله إلى مبنى آخر بجوار الدائرة قائلا: هلا زرتم هذه المكتبة العظيمة للمخطوطات في اللغات العربية والفارسية والتليغو و السنسكريتية، فعبرنا الشارع الفاصل بين «مكتبة وإدارة تحقيق المخطوطات الشرقية الحكومية» (Oriental Manuscripts Library)، وهي في مبنى واسع، ذي طبقات، وتوجه بنا الأستاذ إلى امرأة كهلة ذات وقار ورزانة- وهي الدكتورة السيدة تنوير فاطمة من «حيدر آباد» باحثة في المكتبة ومسؤولة فيها-، وهذه المكتبة كانت جزءًا من المكتبة الآصفية الكبرى، ثم رأوا إفراد قسم ومكتبة تضم المخطوطات في هذه اللغات، ويبلغ عدد مخطوطاتها (١٧٠٠٠) مخطوط، و لاتوجد مكتبة غيرها في الهند تحتضن بهذا العدد الهائل من المخطوطات. وقضينا في هذه المكتبة برهةً من الزمان، والدكتورة تشرح لنا بلاءها الحسن، وما لَاقَتْه من الألاقي في سبيل الحفاظ على هذه المخطوطات النادرة والقيمة في هذه المكتبة. ثم خرجنا من المكتبة شاكرين لها ولجهودها الجبارة في ذلك. فجزاها الله خير الجزاء عن العلم وأهله.

وكانت وجهتنا الثانية هي الجامعة العثمانية «حيدر آباد»، ولكن زيارة دائرة المعارف العثمانية والمكتبة استنفدت كثيرًا من أوقاتنا، فلم نجد بدًّا من أن نمر على الجامعة مر السحاب، نشاهد بعض مبانيها، ونعود على أعقابنا؛ فقد كان تقرر أن نتغدى في بيت أحد طلاب المدرسة – وهو المدعو/زكريا عاطف- بدعوة من أبويه، فانصرفنا نتتبع الطريق إلى البيت، ولم نصل إليه حتى دقت الساعة الثالثة ظهرًا، وكنا صلينا الظهر في بعض جوامع المدينة العتيقة، وتوجهنا توًّا إلى بيت المضيف. فاستقبلنا جده لأم- وهو سيد مير علي أحسن- استقبالا حارًّا، ورحب بنا ترحيبًا فوق ما نستحقه، وقد رتب الغداء على السفرة، فجلس بنا عليها، وهو رجل كبير السن قضى أعوامًا وأعوامًا طوالا في المملكة العربية يشتغل مهندسًا في بعض الشركات فيها، وبعد الغداء جلسنا على الشاي، فجعل يحكي لنا الشيء الكثير من ذكرياته في المملكة العربية السعودية، ويثني على

أهلها ثناء عاطرًا، وكان فيما قال: إن السعوديين رجال طيبون، قلوب طيبة، ونفوس لينة هينة في المعتاد، لايعرفون الخداع والمكر والغرر، وهم كثيرو الثقة بمن يعاملهم، حسنو الظن بمن يخالطهم ويعاشرهم، إلا أننا نحن– المنتمين إلى شبه القارة الهندية– أفسدناهم ما أفسدنا، بما ينطوي عليه كثير منا من المكر والنفعية. نعوذ بالله من ذلك. وذكر لنا أن العالم الرباني والداعية الإسلامي الشهير الراحل العلامة أبو الحسن علي الندوي رحمه الله كان نزل عليه ضيفًا في بيته في «جدة» حين كان نازلًا فيها. وأبدى تأثره الشديد وتفاعله المتناهي معه بما كان يلمس فيه من الحب اللامتناهي للإسلام والعاملين لصالحه، والدعاة إليه. رحمه الله رحمة واسعة.

وخرجنا من عند هؤلاء القوم الطيبين، وهذا الجو المليء بالغبطة والسرور وذكريات الماضي الحلوة الرائعة، نشكرهم على هذا الغداء الشهي، والمائدة الدسمة. ولانملك تجاه هؤلاء – الذين عادوا معارف بعد أن كانوا نكرات وأغرابًا– إلا أن نقول: فجزاهم الله خير ما يجازي به عباده الصالحين. والطريق من هنا إلى المدرسة مزدحم في معظم الأوقات وخاصة في أوقات الذروة التي كنا خرجنا فيها من البيت، ولكن قائد السيارة البارع المحنك– وهو الأخ الفاضل المفتي إصلاح الدين مالك السيارة– سلك بنا طريقًا مختصرا في زقاق المدينة وبنياتها الداخلية الضيقة بعض الشيء، فإنه من أهل «حيدر آباد»، وقد تغلغل في أحشائها، وأهل مكة أدرى بشعابها، كما يقول المثل العربي، وكان كلما خرج بنا إلى الشارع العام لقينا من الزحمة ما الله به عليم.

مدرسة خير المدارس في سطور:

نظرًا إلى الحاجة الماسة إلى مدرسة تزود أبناء المسلمين بالعلوم الدينية في المنطقة أسس المفتي محمد أحمد علي القاسمي حفظه الله مدرسة باسم «مدرسة خير المدارس» في ٩/ شوال ١٤٢٠هـ= ١٢/يناير عام ٢٠٠٠م، في مبنى مستأجر في حي «بورا بنده» من مدينة «حيدرآباد»، وبدأت و واصلت نشاطاتها فيه ليل نهار، وكانت المدرسة في حاجة إلى مبنى تملكه حتى يتوسع نطاق خدماتها ونشاطاتها التعليمية والتربوية والدعوية. فقاموا بشراء قطعة أرض مساحتها ألف متر مربع، في منطقة «شاهين نغر» في ضواحي مدينة «حيدر آباد».

أقسام المدرسة وشعبها:

١– قسم قراءة القرآن الكريم نظرًا.
٢– قسم تحفيظ القرآن الكريم.
٣– قسم العالمية.
٤– قسم التخصص في الفقه والإفتاء.
٥– دار الإفتاء.
٦– قسم النشر والإعلام.

٧- قسم الخطابة والكتابة.

عدد طلابها وأساتذتها وموظفيها:

تحتضن المدرسة نحو (٣٢٠) طالبًا، تكفل لهم الوجبات الغذائية والسكن. ويبلغ عدد الأساتذة (٢٠) أستاذًا، وفيها (٥) موظفين.

موارد المدرسة المالية:

لاتملك المدرسة موارد مالية مستقلة، وإنما تغطي ميزانيتها تبرعات المسلمين بعد فضل الله تعالى.

أهدافها وتطلعاتها:

نظرًا لتزايد إقبال الطلاب وارتفاع عددهم يومًا فيومًا، تتطلع المدرسة إلى توسعة مسجدها و إقامة مباني سكنية جديدة، مما يتطلب شراء قطعة أرض مساحتها (١٦٠٠) متر مربع.

خصائص المدرسة وميزاتها:

- تمتاز المدرسة بالتركيز الشديد على اللغة العربية، فدشنت لتحقيق هذا الغرض «الصف العربي»، وخصصت الحصة الدراسية السابعة كل يوم لتعليم اللغة العربية قراءةً وكتابةً وخطابةً علاوة على المقررات الدراسية المتبعة في المدارس الإسلامية الأهلية في شبه القارة الهندية.

- تشجع الطلاب على البقاء في المدرسة في شهر شعبان بعد الاختبارات السنوية، وتقدم لهم دروسًا إضافية في النحو والصرف.

- تعتني المدرسة اعتناء بالغًا بإعداد الطلاب، وتأهيلهم للالتحاق بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند خلال السنة الدراسية وحتى في شهري شعبان ورمضان، وينصرف له بعض أساتذة المدرسة خصيصًا لذلك. وأثمرت هذه المساعي الحثيثة والجهود المشكورة كثيرًا، فاحتل في العام الماضي والعام الحاضر بعض طلابها المراكز العليا- المركز الثاني والمركز الثالث- في اختبارات القبول في الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند. ويترشح نحو (٨٠٪) من طلاب المدرسة المتقدمين لاختبارات القبول في دارالعلوم/ديوبند كل عام. فلا يعدم قسم من أقسام التخصص- من قسم التخصص في التفسير إلى قسم التخصص في الإفتاء والتخصص في الحديث- طالبًا سبق أن تلقى العلم في هذه المدرسة.

والعاملون في هذه المدرسة – من المدير والأساتذة - كلهم ممن تخرج في الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، ويتبعون منهجها في التعليم والتربية والمقررات الدراسية، وعلى صلة وثيقة بأساتذتها ومسؤوليها.

ومما لمسته في هذه المدرسة بشكل واضح:

١- عناية طلابها باللغة العربية خاصة، وبالعلوم الإسلامية بشكل عام.

٢- عناية المدرسة بالنظافة والآداب

الإسلامية في السكن وفي المسجد وفي كل مكان. فطالما رأيت الطلاب في المدارس الأخرى يتزاحمون على لقاء الضيوف الوافدين إلى مدرستهم، والسلام عليهم ومصافحتهم، ويتدافعون لأجل ذلك.... فوضى لانظام لهم، وإن كان ذلك نابعًا عن حبهم وتقديرهم لهم، ولكن من الحب ما قتل. وعلى العكس من ذلك كم دخلت المسجد أو فصلًا من فصول هذه المدرسة أو ردحات المبنى، فوجدت الطلاب يسلمون ويصافحون بنظام، وأدب جم، كل ذلك ينم عن حسن تربيتهم وتحليتهم بالآداب الإسلامية.

٣- الاجتناب الكلي من الدعاية والتطبيل لخدماتها ونشاطاتها وإنجازاتها، فلاتجد ولو نشرة واحدة في صحيفة من الصحف الصادرة في الهند منذ تأسيس المدرسة عام ٢٠٠٠م حتى يومنا هذا، وقد مضى عليها نحو ٢٥ عامًا. وهو أمر غريب بعض الشيء؛ فكم تنفق بعض المؤسسات على الدعاية والإعلانات في أول العام الدراسي أو وسطه أو آخره؟

٤- تشهد المدرسة إقبالا كبيرًا من الطلاب، فلايرشح أي طالب للدراسة إلا في الصف الأول العربي، أو الثاني- قليلًا- وبعد اختبار صارم يجتازه الراغب في الدراسة في المدرسة، وعدد كبير منهم يُحرَم القبول لتلاشي الكفاءة المطلوبة في الدراسة.

٥- أفادني بعض أساتذة المدرسة أن الطالب يكلف خلال الدراسة أن يستفيد من الشروح العربية لا من الأردية، فلاتوجد نسخة من الشروح الأردية في المدرسة.

٥- يوجد عدد كبير من الطلاب- نحو خمسين طالبًا- لم يتخلف عن حصة دراسية في العام الدارسي كله.

٦- ليس في المدرسة موظفا مختصًّا يتجول بين الناس ويجمع منهم التبرعات لصالح المدرسة، وإنما يتقدم الناس بتبرعاتهم بأنفسهم إليها.

٧- يُمنع منعًا باتًّا استخدام الجوالات الذكية وغير الذكية.

هذا بعض ما لمسته في هذه المدرسة، وبعض ما أفادني به مدير المدرسة وبعض المسؤولين فيها، فجزاهم الله خيرًا.

وبعد يومين عامرين بالنشاطات واللقاءات والجلسات حان موعد المغادرة فاستقيظت صباحًا مبكرا، وصليت الفجر أول ما دخل الوقت، فتقرر أن نغادر إلى المطار في نحو الساعة الخامسة، وهيأت الأغراض، إذ جاء مدير المدرسة والأستاذ سيد محمد أمجد القاسمي وبعض الإخوة الآخرين، فكان وداع وتشييع ومصافحة ومعانقة. وصادف أن تأخر قائد السيارة قليلا، فما كان من مدير المدرسة إلا أن أركبني سيارته وبدأ يسوقها، فجاء القائد، وأراد أن

يتـولى قيـادة الـسيارة بـدلًا مـن المـدير، ولكنـه أبـى وحرك السيارة بعد أن ركبت أنا والمفتي سيد محمد أمجد القاسمي، فما هي إلا دقائق عشر حتى كنا على مطار «حيدر آباد»، وركن الشيخ المفتي محمد أحمد علي – مـدير المدرسـة – سـيارته في جانـب، ونزلنـا ونـزل و ودعنـا عـلى مـدخل المطـار، وكـانوا قـد استخرجوا لي بطاقة الدخول مسبقًا، فلم يكن علي إلا أن أتوجه إلى نقطة التفتيش، وتجاوزتها بسلام، وبـادرت إلى البوابـة رقـم ١٠٢ لركـوب الطـائرة، والـساعة تـدق الخامـسة النـصف موعـد ركـوب الطائرة، فجلست على بعض الكراسي التي لاعيب فيها إلا أنها تكسر الظهر، وتطير النوم من العيون إذا ما خطر ببال أحد أن ينام وهو جالس عليه.

وأعلـن المـذيع بـدء الـدخول إلى الطـائرة، فتوجهـت فـيمن توجه إلى البوابـة، ودخلنـا الطـائرة وتبـوأت مقعـدي رقـم(B٢٣)، في منطقـة (B). ولم يلبث أن امتلأت الطائرة بالركاب، وأعلنوا الإقلاع، ودبت الطائرة على المدرج بعض الوقت، ثم أسرعت خطواتهـا حتـى ارتفعـت في الجـو، وحلقـت في كبـد الـسماء. وبعـد مضي قليـل مـن الوقـت قـدموا بعـض الفطـور الخفيفـة عـلى الطـائرة، ثـم غفـوت غفـوة، إذ أعلـن المـذيع أن الطـائرة تـستعد للهبـوط عـلى مطـار دلهي الدولي بعد قليل. فهبطت على المدرج، وحمدنا الله عـلى الـسلامة وإن واجهـت الطـائرة خـلال التحليق بعض المطبات الهوائية التي أدخلت الرعب في قلوب بعض الركاب.

وركبـت سـيارة أجـرة بعـد أن اسـتلمت الأغـراض الخفيفـة التي كانـت معي، وخرجـت مـن المطـار، وأقلتنـي الـسيارة وسـارعت الخطـى عـلى شوارع «دهلي» العاصمة الكظة بالسيارات والمارة حتى خرجنا من المدينة ثم خلا الطريق، فسارت هوينًا، ونزلنا على بعض الاستراحات التي تتناثر هنا وهنـا عـلى طـول الطريـق مـن «دلهي» إلى «ديوبنـد»، لنتـاول بعـض المـشروبات مـن الـشاي وغـيره، ثـم استأنفنا السير بخطوات حثيثة، ووصلت إلى سكني في دارالعلوم/ديوبند بسلام آمنًا، حاملا في جعبتي من الذكريات الحلوة الرائعة وقرَ بعير.

* * *

الهوامش:

(١) هو سيد أمجد علي بن سيد عثمان علي، من مواليد شهر يناير مـن عـام ١٩٨٥م، ومـن العلـماء الـشباب، كثـير التنقـل في حاجـات المدرسـة، وطويـل الـسهر عـلى راحـة ضـيوفها، لايعرف الكلل ولا الملل. بدأ دراسة الصف العربي الأول في جامعـة إشـاعة العلـوم/ أكـل كـوا، وأكمـل دراسـة الـصف العـربي الثـاني في الجامعـة الرحمانيـة في «حيـدرآباد»- مـسقط رأسه-، ثم التحق بالصف الثالث العربي بدارالعلوم/ديوبند، وواصل بها دارسته حتى تخرج في دورة الحديث الشريف عام ٢٠٠٦م، ثـم التحـق بقـسم الأدب العـربي عـام ٢٠٠٧م، وبقسم الإفتاء بها عام ٢٠٠٨م، وقضى نحو ثماني سنوات في

هذه الدار، ليبدأ مشواره التدريسي في مدرسة خير المدارس منذ نحو سبع عشرة سنة، وبذل ويبذل قصارى جهده في التدريس، وفي كل ما يعود على الطلاب من الفائدة والنفع.

(٢) المفتي محمد أحمد علي القاسمي من مواليد عام ١٩٧٢م، تلقى دارسته الابتدائية في دارالعلوم/حيدر آباد، إلى الصف السادس العربي، ثم أكمل دراسته في الصف السابع ودورة الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، وعاد إلى بلده «حيدر آباد» ليقيم معهدًا لتحفيظ القرآن الكريم، والدراسة الابتدائية العربية، في ٩/شوال عام ١٤٢٠هـ= ١٦/يناير عام ٢٠٠٠م، في حي «بورا بنده» من أحياء مدينة «حيدر آباد»، سماه خير المدارس، واستأجر لهذا الهدف مبنى، وأكب على تطوير المدرسة وتوسعة نطاقها وخدمة الإسلام والمسلمين في هذه البلاد بنحو عشرين طالبًا ومدرس واحد، واستمر على ذلك ثلاث سنوات حتى جاء تدشين قسم العالمية في السنة الرابعة. وله مشاركة فاعلة في الخدمات الدعوية، واتخذوه أميرًا للجماعة في المنطقة، يقضي ليله ونهاره فيما يعود على المدرسة وعلى الجماعة بالخير والرقي والازدهار، بارك الله في عمره، فهو كثير التواضع، حسن الأخلاق شديد الحرص على توفير التسهيلات اللازمة لطلابها ومدرسيها ما استطاع إليه سبيلا. ولا أنسى أنه كان علي أن أخرج إلى المطار في الساعة الرابعة والنصف تمامًا يوم المغادرة، وتأخر قائد السيارة، فما كان من الشيخ إلا أن أركبني سيارته الخاصة، وساق السيارة، في حين قد وصل السائق ورغب في قيادة السيارة بدلًا من الشيخ القاسمي، ولكنه أبى إلا أن يوصلني إلى المطار في الوقت المحدد. فجزاه خير الجزاء،وكثَّر من أمثاله.

(٣) محمد بختيار بن عبد الستار القاسمي من مواليد عام ١٩٨٨م في مدينة «حيدر آباد»، تلقى مبادئ دراسته في مدرسة خير المدارس إلى مرحلة الصف الرابع العربي، والتحق بالصف الخامس العربي بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند عام ٢٠٠٩، و تجاوز المراحل الدراسية اللاحقة- الصفوف: الخامسة والسادسة والسابعة ودورة الحديث الشريف ٢٠١٣م- حتى التحق بقسم الإفتاء بها عام ٢٠١٤، وبدأ مشواره التدريسي في مدرسة خير المدارس منذ ١٢ عامًا. وهو من العلماء الشباب، جم التواضع، هين لين، كالجمل الآنف إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ. يعمل مدرسًا، ويساعد مدير المدرسة في أعماله الإدارية، مع كثير العناية بالضيوف النازلين عليها، والسهر على راحتهم. وتجول في كثير من الدول الإسلامية وغيرها داعيًا ومبلغًا. فتقبل الله مساعيه ووفقه لمزيد من العمل البناء.

(٤) محمد إصلاح الدين تميم بن محمد يعقوب الدين وسيم القاسمي من مواليد «حيدر آباد» عام ١٩٩٠، تلقى مبادئ العلم في مدرسة خير المدارس، ثم التحق عام ٢٠١١م بدارالعلوم /ديوبند في الصف السادس، وأكمل دراسة دورة الحديث الشريف فيها عام٢٠١٤م، ثم أكمل الإفتاء في دارالعلوم «حيدر آباد»، ٢٠١٤-٢٠١٥م. من العلماء الشباب، بدأ مشواره التدريسي منذ عام٢٠٢٢م في مدرسة خيرالمدارس.

(٥) سيد عبد المنان بن سيد عبد الجبار القاسمي من مواليد «حيدرآباد» عام ١٩٧٥، وتلقى مبادئ العلم في دارالعلوم/ حيدر آباد، والتحق بقسم دورة الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند، وتخرج منها عام ٢٠٠٣م، ثم عاد إلى «حيدر آباد»، وتعين مدرسًا في خير المدارس منذ عام٢٠٠٤م، ويشتغل في شؤون المدرسة في هذه الأيام بجانب الإمامة والخطابة في جامع الجامعة العثمانية /حيدر آباد.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وإن كثيرًا من المسلمين قد هان دينهم في أعينهم، فهانوا في عيون غيرهم، فإن المرء إذا عجز عن إكرام ما لديه من فضل ونعمة من الله تعالى لم يجد من يكرمه ويرفع شأنه، ويقيم له وزنًا وقيمة؛ بل يعود يستهزئ به، وينتقص منه على أساسه. وهذا ما ابتلي به المسلمون في العصر الحاضر. وكان المسلمون الأوائل يعتزون بدينهم، وبتوجيهاته، وبسنن نبيهم، ويرون أن الله تعالى فضلهم على غيرهم بهذه النعمة: نعمة الهدى والرشاد إلى دين يعلِّمهم كيف يعيشون حياتهم؟ وكيف يعاملون الناس؟ويعلمهم صغارَ الأمور وكبارها.

وهذا سلمان الفارسي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال له بعض المشركين- وهم يسخرون-: إن صاحبكم قد علمكم حتى علمكم الخراءة. فلم يغض سلمان طرفه حياءً، ولم يطأطئ رأسه خجلًا، ولم يرَه عيبًا وشينًا في دينه؛ بل اعتز به وافتخر، ورد عليه ردًّا يستحق أن يكتب بماء من الذهب، فقال سلمان: «أجل، أمرنا أن لا نستقبل القبلة، ولانستنجي بأيماننا، ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار ليس فيها رجيع ولا عظم» [مسند البزار:٢٥٠٢].

فهؤلاء الكفرة أرادوا أن يستهزئوا بسلمان وبدينه وتوجيهاته، فرد عليهم مشيرًا إلى أنه مقام فخر واعتزاز، لا استهزاء وسخرية.

والمشهد نفسه يتكرر مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه – وإن كان تكلم فيه البزار–، فقد روي عن الحكم، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قال رجل من المشركين لعبد الله: إني لأحسب صاحبكم قد علمكم كل شيء، حتى علمكم كيف تأتون الخلاء؟، قال: إن كنت مستهزئا، فقد علمنا أن لا نستقبل القبلة بفروجنا، وأحسبه، قال: ولا نستنجي بأيماننا، ولا نستنجي بالرجيع، ولانستنجي بالعظم، ولا نستنجي بدون ثلاثة أحجار.

وإذا كان المسلم يحرص على أن يستعيد مجده الغابر، والمكانة التي كان يحتلها في الدنيا، حيث خضعت أعناقها لهم، فإنه يجب أن يتمسك بسنة نبيه ويعتز بها، ويكون النبي ﷺ إلى أحدهم أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين، ولايبالي في ذلك لومة لائم ولا استهزاء مستهزئ، ولا سخرية ساخر، ولا فهم عاقل مهما بلغ من فهمه وعقله. فاتباع النبي ﷺ والاقتفاء بسنته يجب أن يكون فوق

الاعتبارات كلها، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتي إلى الحجر الأسود ويقبله، ثم يقول: إني أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبلك ما قبلتك [صحيح البخاري:٧٦٢]. وهذا ابن عمر ضي الله عنه يقول: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما تركت استلام هذين الركنين في شدة ولا رخاء، منذ رأيت النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يستلمهما. فقلت لنافع: أكان ابن عمر يمشي بين الركنين؟ قال: إنما كان يمشي ليكون أيسر لاستلامه [صحيح البخاري:٧٦٣].

وقد بلغ الصحابة رضي الله عنهم من حب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتمسك بسنته و الخضوع لأمره كما صوره عروة بن مسعود ولم يكن قد آمن يوم دخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلح الحديبية، فقام من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبسق بساقًا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر و النجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدًا، فرُوا رأيكم.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يشددون النكير والتوبيخ على من يورد الإيرادات حين تطبيق السنة النبوية، فروى ابن ماجه في سننه [١١٧٥] عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلاة الليل مثنى مثنى، والوتر ركعة» ، قلت: أرأيت إن غلبتني عيني، أرأيت إن نمت؟ قال: اجعل - أرأيت - عند ذلك النجم، فرفعت رأسي، فإذا السماك، ثم أعاد فقال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلاة الليل مثنى مثنى، والوتر ركعة قبل الصبح».

وروى البخاري في صحيحه [٧٦٦] عن الزبير بن عربي قال: سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر؟ فقال: رأيت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يستلمه ويقبله. قلت: أرأيت إن زحمت؟ أرأيت إن غلبت؟ قال: اجعل (أرأيت) باليمن! رأيت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يستلمه ويقبله. وفي مسند الطيالسي [١٩٧٦]: «قال: اجعل (أرأيت) مع ذلك الكوكب».

* * *

أ أترك سنة نبيي...؟

كلمة قالها أحد أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تحمل في طياتها كثيرًا من العبر وجمًّا من الدروس لأمثالنا نحن المسلمين في العصر الحاضر؛ فإن كثيرًا منا أصبح يترك السنة النبوية؛ بل واجبات الدين وفرائضه في كثير من الأحيان مخافة أن يُلمز بالتدين، وبالرجعية و بالأصولية، وبحشر الدين في جميع شعب الحياة، وجميع شؤونها صغيرها وكبيرها، وحلوها ومرها، وسرائها وضرائها.

وإن كثيرًا منا لجهله أو ضعف إيمانه أو قلة إيمانه - عاد يرى أن تطبيق السنة النبوية في هذا العصر الذي يشهد التطور العلمي الهائل، ويشهد غزو الفضاء ودخولَ أعماق البحار- يعني التخلف والتقهر، والتزمت، والعودة إلى العصر الحجري، خاصة بعد أن غزا الإعلام الحانق، واستولى الفكر المعادي على كثير من عقول المسلمين وقلوبهم، وتغلغل في أعماقهم. وصحيح أن الاستعمار- وبتعبير أدق: الاستدمار- ولَّى عهده، وخرج من البلاد، ولكن الغزو الفكري عاد بأشد مما كان عليه، وأصبح يفتن قلوب الشباب والشابات أكثر من أي وقت مضى.

وروى ابن ماجه [٣٢٧٨] عن الحسن عن معقل بن يسار قال بينما هو يتغدى إذ سقطت منه لقمة فتناولها فأماط ما كان فيها من أذى فأكلها فتغامز به الدهاقين، فقيل: أصلح الله الأمير، إن هؤلاء الدهاقين يتغامزون من أخذك اللقمة، وبين يديك هذا الطعام. قال: إني لم أكن لأدع ما سمعت من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لهذه الأعاجم، إنا كنا نأمر أحدنا إذا سقطت لقمته أن يأخذها، فيميط ما كان فيها من أذى، ويأكلها ولا يدعها للشيطان.

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري